
القافلة
جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ يناير/فبراير ١٩٨٨م

# القافلة

THE CARAVAN - JAN./FEB. 1988

جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ يناير/فبراير ١٩٨٨م

العدد السادس/المجلد السادس والثلاثون

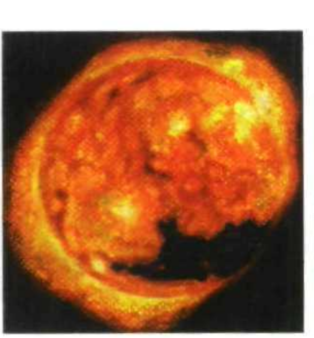
مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً

المدير العام: فيصل محمد البسام
المدير المسؤول: اسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد: عوني أبو كشك



تجميل المدن في المملكة


ما أغرب هالة الشمس


التايتنيك.. السفينة التي لا تغرق


المدرسة الأندلسية في علم النبات والأعشاب



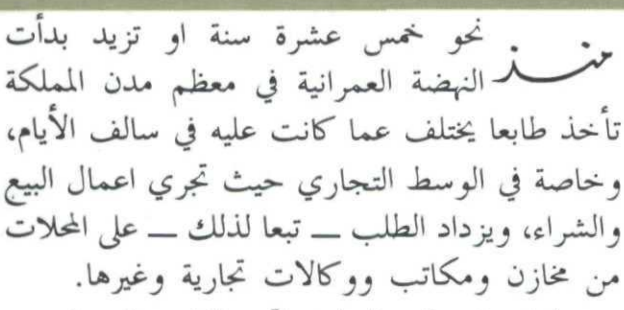
**صورة الغلاف:** «البسملة» مجسم جمالي في أحد ميادين مدينة جدة. تصوير: «محمد شبيب»

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.
- كل ما ينشر في "القافلة" يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعبر بالضرورة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها.
- يجوز اعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر.
- لا تقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها.


العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية



تنفيذ وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM



# تجميل المدن في المملكة

بقلم: ابراهيم أحمد الشنطي / هيئة التحرير

منذ نحو خمس عشرة سنة او تزيد بدأت النهضة العمرانية في معظم مدن المملكة تأخذ طابعا يختلف عما كانت عليه في سالف الأيام، وخاصة في الوسط التجاري حيث تجري اعمال البيع والشراء، ويزداد الطلب ــ تبعا لذلك ــ على المحلات من مخازن ومكاتب ووكالات تجارية وغيرها.

ولمواجهة هذه الزيادة اتجه الناس الى التوسع العمودي في تلك المناطق فشيدوا العمارات العالية ذات الأدوار المتعددة، كما أخذت المدن بالتوسع الأفقي طولا وعرضا فتجاوزت مساحات بعضها عشرات الكيلومترات المربعة وربما المئات. وبلغت ضواحيها القرى المجاورة فاحتوتها وصارت أجزاء منها بعد ان كانت تبدو بعيدة عنها. ومع توافد الناس وتزايد الهجرة الى المدن للعمل فيها والاقامة بها، ازدادت كثافتها السكانية كالحال في معظم بلدان العالم.

«نون والقلم وما يسطرون» مجسم يقابل بلدية الحرم المكي.

ولتوفير وسائل الترويح النفسي لهؤلاء الناس، على مختلف أعمارهم، كان لا بد من ايجاد المرافق الترفيهية والتجميلية كالحدائق والمتنزهات والنوافير والشلالات والمجسّمات الجمالية التي تضفي على الحياة النشطة شيئا من الهدوء والراحة والمتعة. فنشطت بلديات المدن وراحت تختار الأنسب لها من هذه المرافق آخذة بعين الاعتبار موقعها الجغرافي، أهي ساحلية مثلا أو على سفح جبل او على تلة مرتفعة، او في أرض منبسطة صحراوية قليلة الماء، أو خصبة وماؤها وفير وهكذا!

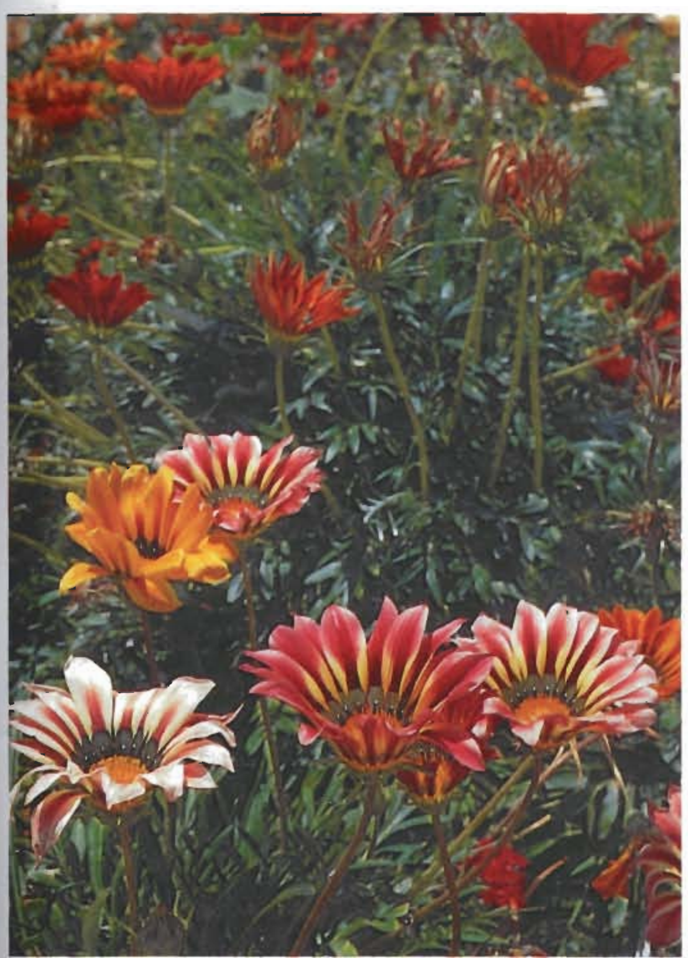
وقد اتجهت جدة مثلا الى شاطئها الجميل، الذي يمتد عشرات الكيلومترات على البحر الأحمر، فأقامت المجسّمات الجمالية وأنشأت حولها المقاعد والمسطّحات الخضر يرتادها الناس في الأمسيات اللطيفة الهواء، فيسمرون مع أسرهم ما طاب لهم السمر والجلوس.

واتجهت الرياض، وهي ذات طبيعة صحراوية جافة ولا شاطىء لها، الى اقامة الحدائق والمتنزهات الواسعة. فاشترت البلدية مزارع أصبحت مع امتداد العمران تتوسط المدينة، فحولتها الى حدائق ذات أثمار وأزهار وأقامت فيها البرك والنوافير والشلالات والقنوات المائية التي تسر العين بمرآها، وتصيخ الأذن لسماع خرير مياهها وتبهج النفس وهي في جنباتها. وفي ظلال الاشجار وخلالها يمرح الأطفال باطمئنان حول ذويهم وفوق العشب الأخضر النظيف.

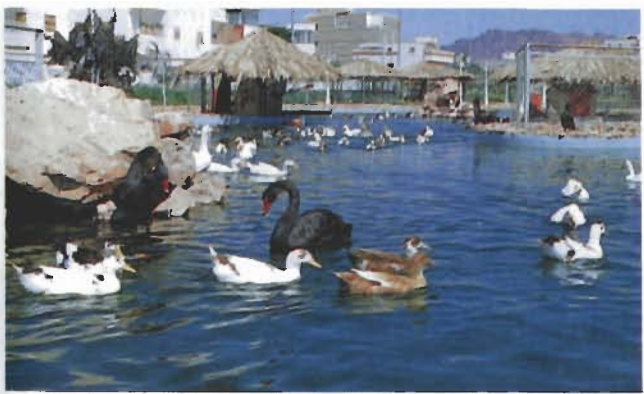
وعلى اختلاف في الموقع والمناخ والطبيعة تأتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، الأولى على جبال صخرية والثانية في سهل منبسط خصب التربة وفير المياه، تحيط المزارع بالمدينة وتكتنفها الحقول. وفي الأولى اقاموا الحدائق بقدر ما سمحت به طبيعة الأرض الجبلية وبنيت المجسّمات ذات المعاني المستمدة من صفتها المقدسة، وفي الأخرى كانت الحدائق أوسع والشلالات أوفر وكل منهما حسب طبيعته وبيئته.

أما في المنطقة الشرقية حيث المناخ الحار الرطب والموقع المنبسط والشاطىء الممتد مسافات بعيدة، فقد أقيمت مرافق ترفيهية متنوعة ومجسّمات جمالية مختلفة تناسب بيئتها العملية المتميزة وتتفق مع موقعها على الخليج العربي وصناعة الزيت المتطورة.

وحتى ننقل للقارىء صورة واقعية لبعض تلك المرافق على اختلاف أشكالها ومقاصدها، قامت عدسة القافلة بجولة في بعض مدن المملكة، في شرقها وغربها ووسطها، مسجلة عينات وأمثلة ونماذج فقط ــ اذ ان تسجيلها جميعها امر مستحيل ــ لبعض ما يقوم به المسؤولون من أجل رفاهية المواطنين ومواكبة التطور الحضاري الذي تعيشه المملكة □



الأزهار وأشجار النخيل والمسطحات



حديقة المجد بالمدينة المنورة وتبلغ مساحتها حوالي ٢٢ ٠٠٠ متر مربع، فيها العديد من الطيور على اختلاف انواعها: طواويس، ببغاوات، إوز، بط، دجاج متنوع، عصافير، وعدد من الأراجيح المحببة للأطفال.



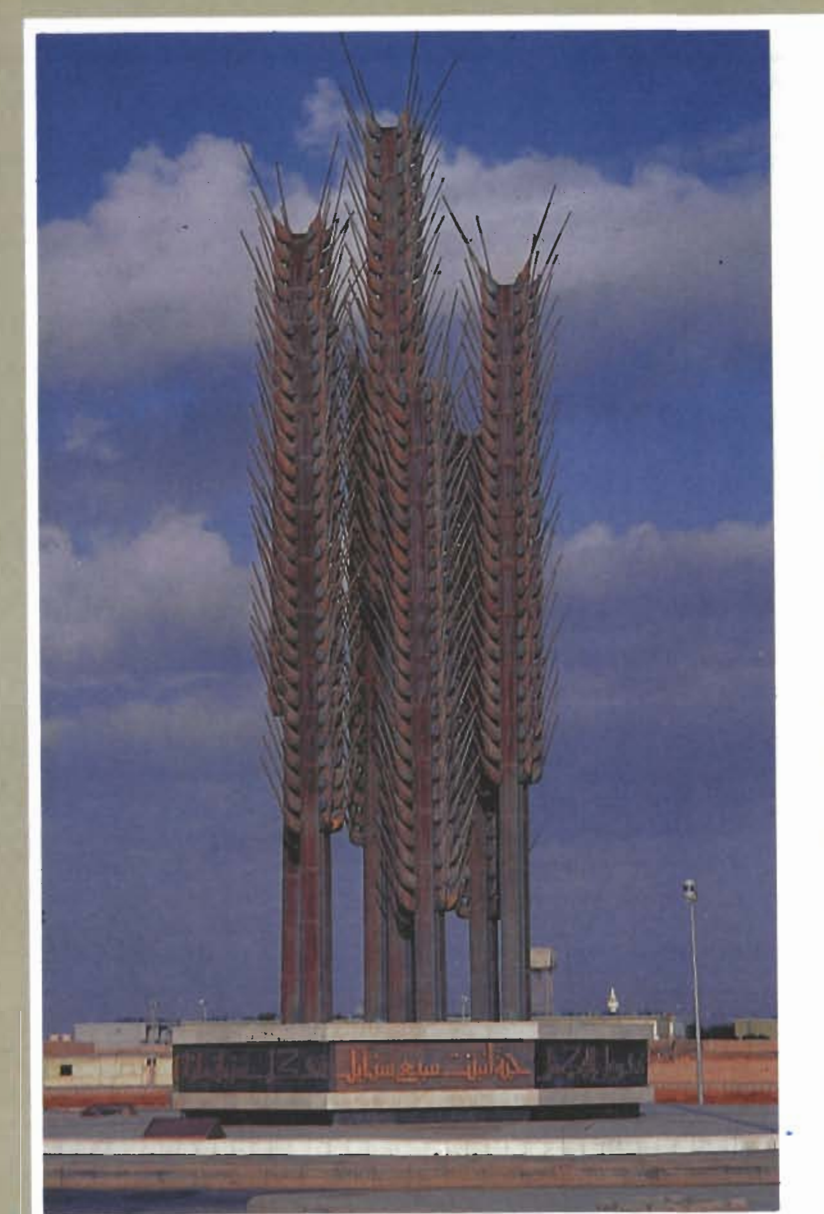
يتدفق الماء على جبل اصطناعي أقيم في حديقة السيد أمين مدني الواقعة على شارع ابي بكر الصديق في المدينة المنورة.



المسطحات الخضر توفر في المتنزهات جواً هادئاً ولطيفاً ــ الرياض.



منظر من حديقة الربيع شرقي الدمام.



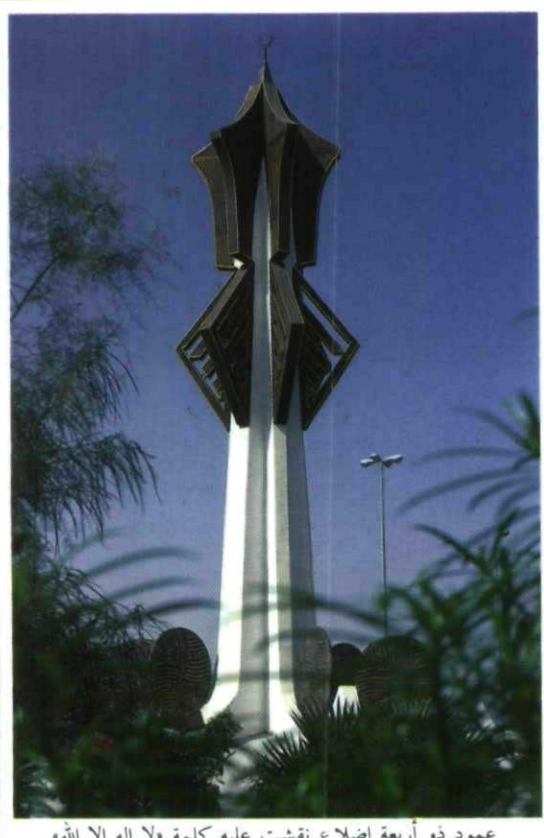
مجسم لسبع سنابل كدليل للخير والعطاء، وهو من النحاس الأصفر ــ جدة.



حدائق ونوافير وازهار ملونة تنتشر في مختلف أحياء المدينة المنورة.

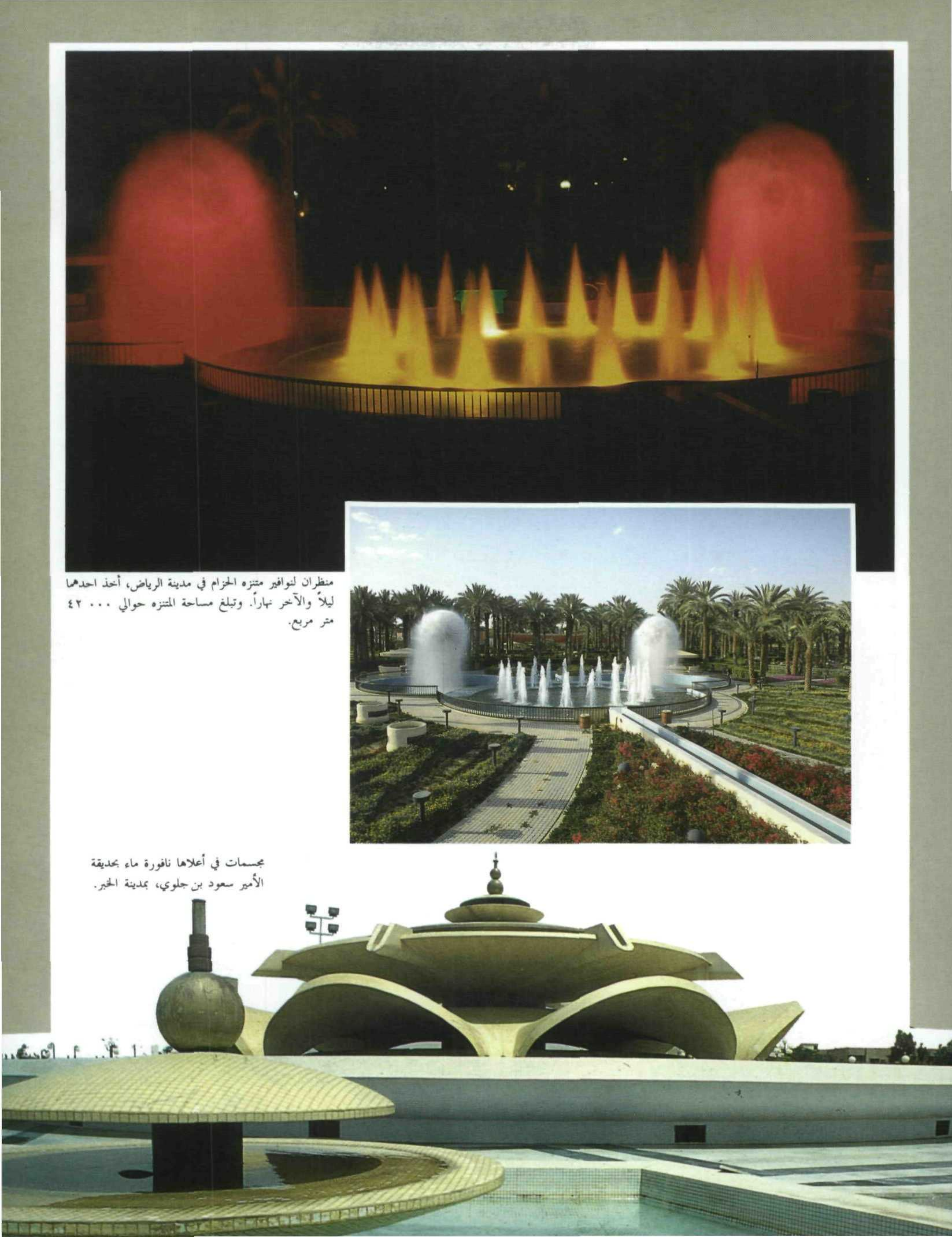



مجسم في حي المعابدة بمكة المكرمة كتبت عليه آية الكرسي.



عمود ذو أربعة اضلاع نقشت عليه كلمة «لا إله إلا الله» في ميدان الخويطر بمكة المكرمة.

مجسم وسط بحيرة اصطناعية بشارع الكورنيش بجدة.



منظران لنوافير متنزه الحزام في مدينة الرياض، أخذ احدهما ليلاً والآخر نهاراً. وتبلغ مساحة المتنزه حوالي ٤٢٠٠٠ متر مربع.

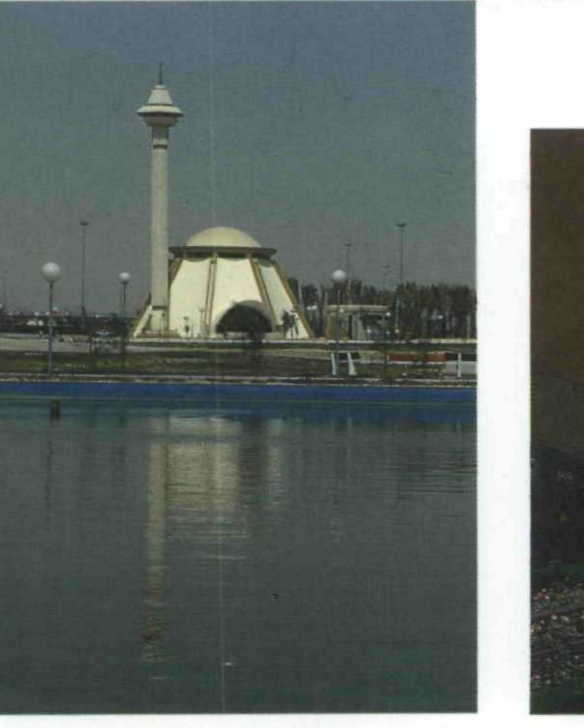
مجسمات في أعلاها نافورة ماء بحديقة الأمير سعود بن جلوي، بمدينة الخبر.



منظر من متنزه السويدي في الرياض وهو عبارة عن غابة من أشجار النخيل. وأرضه ذات مستويين مما ساعد في ايجاد مساقط للمياه.



جانب من متنزه السويدي بالرياض.

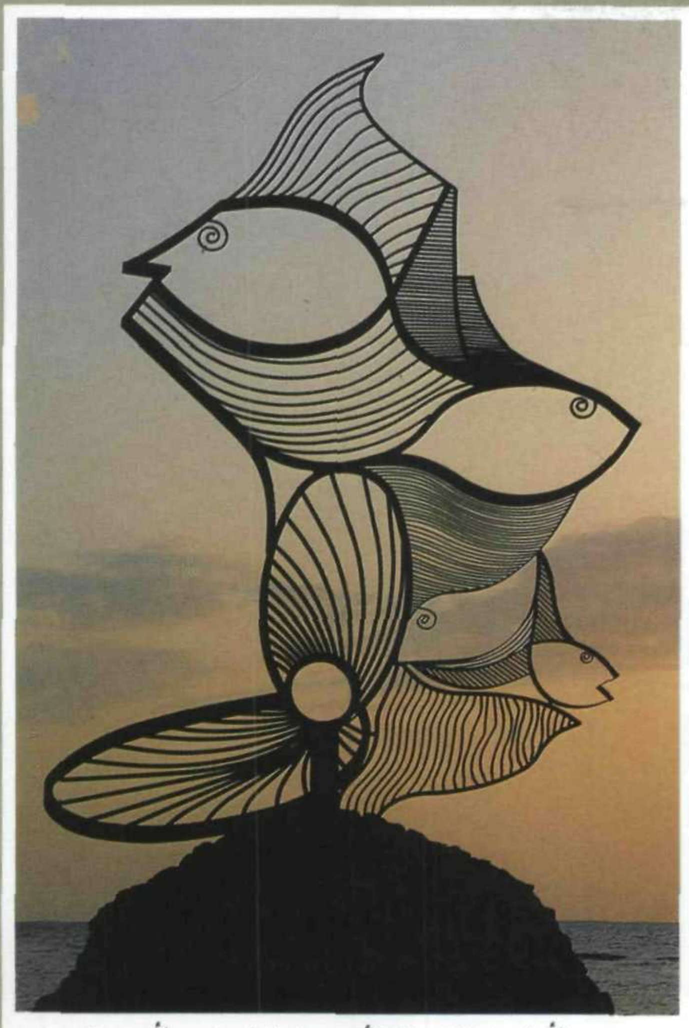


جانب من متنزه الملك فهد في الدمام حيث يبدو احد المساجد.

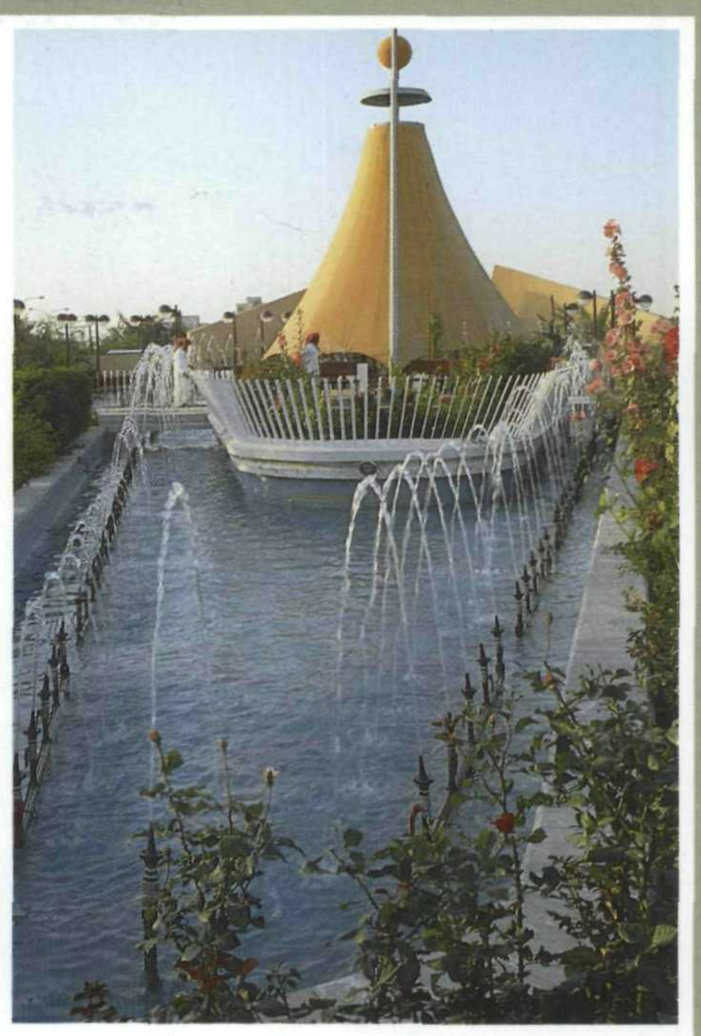
«ميدان زمزم» هو أول ما تطالعه عند دخول مكة المكرمة من ناحية جدة.. خيمة تحتها جرار يتدفق منها الماء.

خريطة الجزيرة العربية يشاهدها الغادي والرائح في شارع النزهة، بمكة المكرمة وقد يسيل الماء حولها في موقع الخليج العربي والبحر الأحمر ــ مكة المكرمة.

منظر من حديقة الربيع في شرقي الدمام.

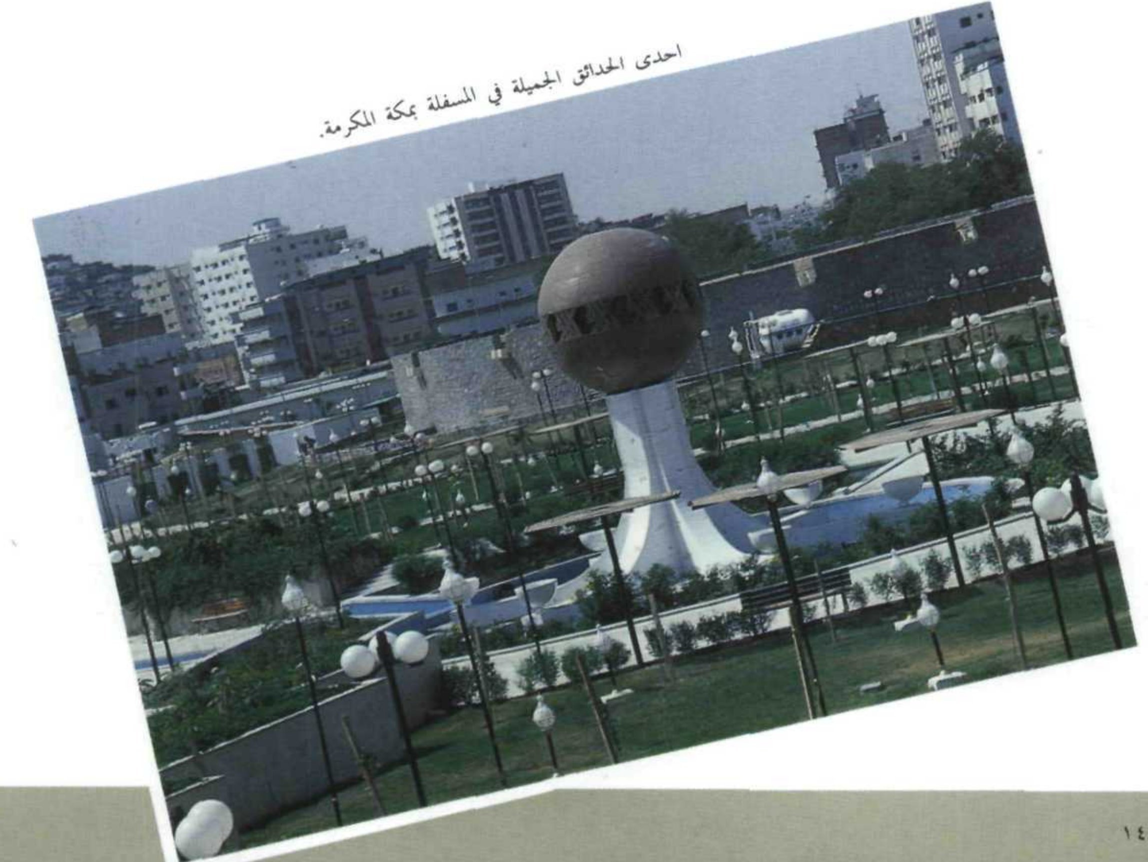


مجسم الأسماك على تلة اصطناعية أقيمت على شاطىء البحر الأحمر بجدة.



خيمة ومثلث من النوافير في حديقة الشميسي ـــ الرياض.

احدى الحدائق الجميلة في المسفلة بمكة المكرمة.

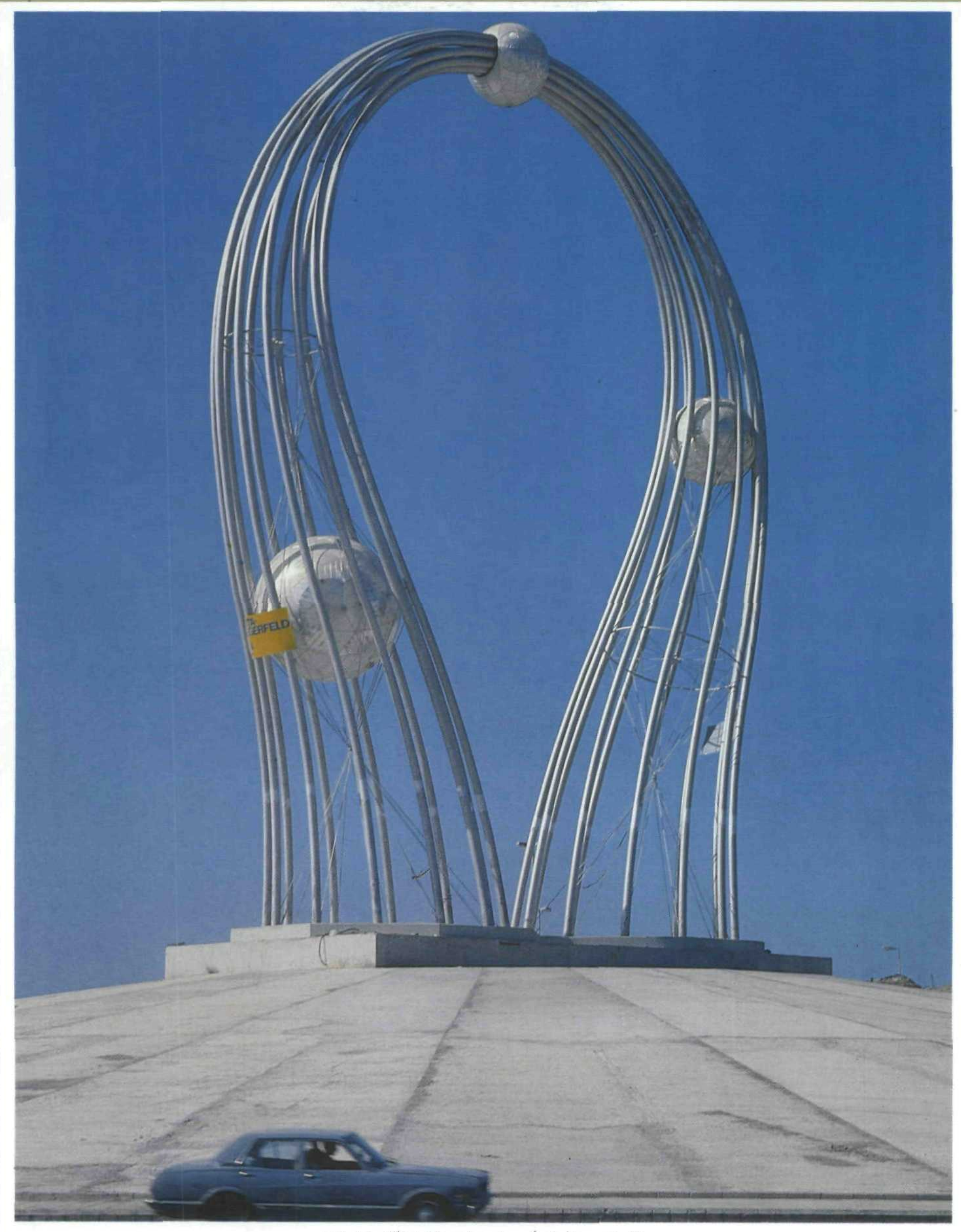





نموذج لناقلة زيت وهي تأخذ حمولتها من خزان للخام أقيم على مقربة منها في حديقة الربيع شرقي الدمام.



جرة الفول ــ مجسم في وسط السوق بجدة، يرمز الى وجبة الصباح التقليدية.



يرتفع مجسم «المجرة» نحو ٤٠ مترا في شارع الملك فهد بجدة.



«الله جل جلاله» لوحة تقرأ من الجانبين بحي المعابدة بمكة المكرمة.

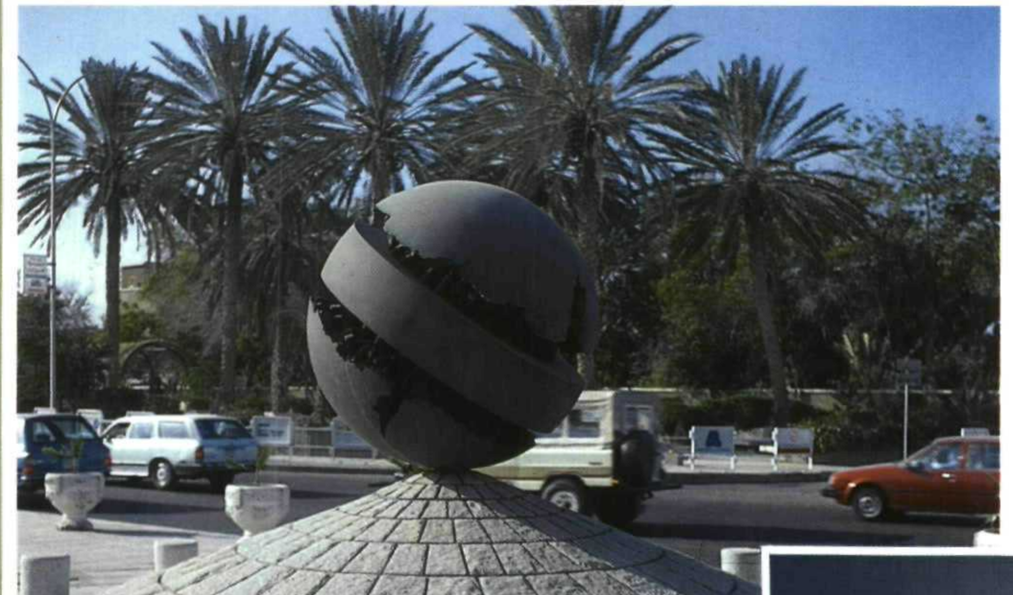
على شاطىء البحر الأحمر وحيث تتكسر الأمواج على الصخور القريبة يقوم هذا المجسم في شارع الاندلس ليمثل حركتها المستمرة.





قاربان يرمزان الى مهنة الصيد البحرية القديمة في مدينة جدة ـــ بوابة المملكة على البحر الاحمر.

مجسم يرمز الى النظام الشمسي الدائم الحركة ـــ جدة.



كرة ضخمة في وسطها حزام، مجسم من الصلب في ميدان الخريجي ــ جدة.



**تصوير: علي خليفة ومحمد آل شبيب**

الشمس والبحر والطيور ــ احد المجسمات.
العديدة المنتشرة على كورنيش جدة.



نباتات دوار الشمس مصنوعة من النحاس الاصفر حيث تنعكس الشمس عليها عند الغروب ــ جدة.






للشاعر: محمد أحمد الزغاري/ الكويت

حياة صقر قريش ملحمة بطولة لم تعرف اليأس بدأت بالخوف والتشرد وانتهت بالمجد والسلطان.

رآهُ الليلُ ينتظرُ ... وحارَ بأمْرِهِ القمرُ
يسيرُ كعاشقٍ اضناهُ ... طولُ السّهدِ والسهرُ
وكيفَ ينامُ والمأساةُ ... لا تُبقي ولا تذرُ؟!
أميَّةُ شمسُها أفلَتْ ... وللمجْهولِ تنحدرُ
فلا في الشرق ساطعةٌ ... ولا في الغربِ تزدهِرُ
تمرّ بذهنه الاحداثُ ... والأشباحُ والصورُ
فيبكي للدَّم المسفُوحِ ... والأشلاءِ تنتثرُ
ويصرخ: يا بني العباسِ ... هل في قتلِنا الظفرُ؟!
رأيتَ أخاكَ مخضوباً ... ولم يشفعْ له الصّغرُ
ثمانيةٌ مِنَ الأعوام ... يُخْتَمُ عندها العمُرُ!!
وتُشْعِل صدرَك الصرَخاتُ ... والاحقادُ تستعرُ
اتلك خصومةُ الأحرارِ ... تعفو حين تقتدرُ؟!
لماذا بُرْعُمٌ غضّ ... يُداس ويُسْحَق الزَّهَرُ؟!
ويمضي في طريق الموتِ ... يُقْسِم: سوف انتصرُ!!
وكلّ سلاحهِ قلبٌ ... تضاءَلَ عنده الخطرُ
ونفسٌ تعشقُ العلياءَ ... والأهوالَ تحتقرُ!!

* * *

وجاء لمغربٍ ناءٍ ... تجولُ برأسه الفِكَرُ
كأنَّ البحر قِرطاسٌ ... عليه يُسَجَّلُ القدَرُ
أيعْبُر فوقه مَلِكاً ... تدينُ لبأسه الجزُرُ؟
ويُمضي نحوَ قرطُبةٍ ... لترفعَ تاجَهُ مُضَرُ؟!
طموحٌ لو يحققه ... فما قاساه يُغتفرُ
يعود بمجده مروانُ ... مزهُوًّا ويفتخِرُ
وإلاَّ راحَ في أملٍ ... بعيدِ الشأوِ ينتحرُ

* * *

فلما جاء أنْدَلُساً ... يحفُّ رِكابَهُ الظّفَرُ
كأنَّ الدهرَ سالمَهُ ... وجاء اليهِ يعتذِرُ



# الإمام سعود بن عبدالعزيز - سعود الأول

## (١١٦٣-١٢٢٩هـ)

بقلم : د. محمد بن سعد الشويعر / الرياض

رجل فذ، وعبقري شجاع، ولد ومات بالدرعية، حيث مقر آبائه وأجداده، وقاعدة الحكم، ومنطلق الدعوة.. وقد ولي الأمر فيها بعد مقتل والده عام ١٢١٨هـ. ولئن كانت الشجاعة والصلابة باديتين في هذه الأسرة، إلا أنها في رجال أفذاذ منهم تظهر جلية وواضحة.

وسعود هذا واحد من الأفذاذ، حيث دخل المعارك الحربية من أجل نشر دين الله في ربوع الجزيرة منذ حداثة سنّه، فلقد ذكر كل من ابن غنام، وابن بشر في أحداث عام ١١٨١هـ أن الأمير هذلول بن فيصل كان اميرا للغزو، وغزا بجنود المسلمين ومعه سعود بن عبدالعزيز، وهي أول غزوة غزاها سعود وهو صغير، وقصدوا العودة بسدير، الى آخر ما جاء عن تلك الوقعة [١].

ويتراءى للباحث من هذا النص أن سعودا كان يبلغ من العمر اربعة عشر عاما، وهذه السن تجعل أترابه، والمقاربين لسنّه يتلهون بلعب الصبيان في أرجاء قراهم، ومراتع صباهم، ولكنها الرجولة المبكرة، والعبقرية المتوقدة، اللتان تجعلان صاحبهما يبدو أكبر من عمره، ويفكر في أعمال يقوم بها، ويؤديها، تفوق من يحيط به ادراكا وعملا.

**وما المرء الا حيث يجعل نفسه**
**فكن طالبا في الناس أعلا المراتب**

وهذا الموقف يذكرني بمحبة شباب الصحابة رضوان الله عليهم للغزو مع الرسول الكريم، ﷺ، ففي غزوة احد مثلا يذكر ابن هشام ان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أجاز سمرة بن جندب الغزاري، ورافع بن خديج، وهما إبنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما فقيل يا رسول الله ان رافعا رام فأجازه، فلما أجاز رافعا قيل يا رسول الله، فان سمرة يصرع رافعا فأجازه [٢].

(١) راجع «عنوان المجد» لابن بشر، ص/٦٥.
(٢) «السيرة النبوية» ٣: ٧.

ففي الموقفين تتجلى روح الحماسة للجهاد في سبيل الله، وتوقد العزيمة في وقت مبكر والرغبة الأكيدة من الشخص نفسه للمساهمة بعد ان تدربت تلك النفس، وعُوِّدت على الشدائد، وتحملها في سن مبكرة، وما ذلك إلا من تأثير البيئة، وتربية الأسرة ونمو العقيدة.

ولم تكن تلك الحالة تمر بسعود الأول ـــ الأمير الصغير، تمرينا فقط، أو نزهة يتسلّى بها، أو تقليدا عشائريا، بل بعثه والده بعد أن لمس فيه نبوغا مبكرا، وصلابة في مقارعة الأحداث، لأنه جندي ماهر، ومقاتل متمرس، وفي خروجه في معية القائد الأمير هذلول بن فيصل، الذي توقع الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف محقق «عنوان المجد» بأنه ابن فيصل بن الامام محمد بن سعود الذي قتل هو وأخوه سعود بن محمد عام ١١٦٠هـ. فانه لا شك سيستفيد من أساليبه القيادية، وطريقته في مقارعة الأحداث، والاستفادة من خبرته في الوصول الى هدفه بالحيلة، او المخادعة، لأن الحرب خدعة ـــ كنموذج من أساليب الادارة الحربية.

وهذا ما حصل للأمير الشاب سعود، فهوذكي ومتوقد حماسة وتلميذ نجيب لمدرسة الدرعية الجديدة، وعادة ما نرى التلاميذ النجباء، او ما يسمون في علم التربية الحديث بالمتفوقين ـــ يكملون ما أنيط بهم في أقصر مدة.. فقد ذكر ابن بشر في السنة التالية لتلك السنة أي عام ١١٨٢هـ: ان سعودا غزا بجنود المسلمين الى الزلفي وأغار عليها، وهذه هي أول غزوة قاد الجيوش فيها الى القتال، وصار سردالا للفرسان والأبطال، وقرنت له من الله السعادة والاقبال، وقد علق المحقق على كلمة سردال بأنها تعني باللغة التركية القائد العام [٣].

بعد هذه البداية العسكرية الفذة في حياة الأمير، فانه قد واصل المسيرة الطويلة والمضنية في حياة والده، ثم بعد ان انتقلت الأمور اليه، فهو لم يكن قائدا عسكريا فحسب، بل

(٣) «عنوان المجد» لابن بشر ص/٦٦ مع الحاشية.

ان المستقرىء لحياته، والمتابع لسيرته منذ تفتح إهابه، ونمو عوده، واشتداد ساعده في عام ١١٨٢هـ، حتى وافاه الأجل المحتوم، وانتقل الى جوار ربه في عام ١٢٢٩هـ، أي بعد حوالي ٤٧ عاما أمضاها في عمل متواصل وجهد مستمر لا يعرف الكلل او الملل.. نراه:

ــ في المواقع العسكرية التي شهدها بنفسه، وقد زادت على الخمسين موقعة، حسبما ذكر ابن بشر، لا يخرج في مفهوم القتال، عما سار عليه رسول الله ﷺ في حروبه ومغانمه وتذكيره للناس، وحرصه على العدالة، ومحافظته وحضه على الطاعات، وكثرة العبادات والرفع عن النساء والأطفال والشيوخ.

وسنمر بشيء من ذلك في عرض مختصر لعلاقته بما نحن بصدده، دون الاطالة او الشمول والاستقصاء، ذلك أن حياة الامام سعود بن عبدالعزيز مليئة بالأحداث، وتحتاج لدراسة متكاملة، وخاصة في استراتيجيته العسكرية وتفاعله معها.

ــ وفي الأعمال الادارية، نموذج فذ، فهو يختار الرجل المناسب للمكان المناسب، كما تقول نظريات علم الادارة في هذا العصر.

وهو يراعي نفسيات الأهالي، فلا يضع عليهم أميرا إلا من بينهم ومن خبرتهم، وممن يرتضونه خلقا، ومكانة اجتماعية. إذ لديه إلمام برغبات الناس، وما يؤثر في نفوسهم ايجابا أو سلبا.

كما كان يتصيد المواهب، ويتابع الرجال وقدراتهم، فيهتم بهم، ويكل اليهم المهمات التي لا يشفي الغليل فيها إلا من لديهم مواهب ومعرفة بطبائع الناس، وعاداتهم، خاصة وان المملكة قد اتسعت، والأرجاء قد تباعدت، وسعى اليه الناس راغبين الاستجابة لدين الله، الذي تتمثل قيادته في سعود: من اليمن جنوبا الى عُمان والبحرين شرقا، فالعراق والشام شمالا.. كما امتد جباة زكاته الى بادية مصر. وقد كان يرسل في كل عام ما يزيد على سبعين لجنة لجمع الزكاة من الآفاق، وكل لجنة تتكون من سبعة رجال، عاملين على جمعها واحصائها، ثم تسليمها بأمانة وإخلاص لبيت المال في الدرعية.

ــ وقد كان ــ رحمه الله ــ محباً للأمن، متابعا لاستتبابه، ضاربا بقبضة صارمة على من يخل به، حيث ذكر ابن بشر ان البلاد في عهده وعهد والده ظفرت بأمن لا نظير له، فكان المسافر يقطع الجزيرة شرقا وغربا، ومن الشمال الى الجنوب، بالأموال والنقود ولا يعترض طريقه احد وهو بمفرده.

ــ كما كان عفيفا عن أموال الناس، ضامناً للعدالة، سخيا بالعطاء.. واني أخالف ما ذكره الدكتور العجلاني نقلا عن المستشرق بركهارت: «بأنه بخيل شره الى المال في أواخر ولايته وعمره»(٤) للأسباب التالية:

أ ــ انه يأمر بقسمة الغنائم بعد المعركة مباشرة، ليأخذ كل مجاهد نصيبه وفق منهج الاسلام،للراجل سهم وللفارس سهمان.

ب ــ انه كثير البذل والعطاء والصدقات،فمثلا في شهر رمضان يجتمع لديه (٣٠٠٠) من المساكين في بيته يطعمهم ويكسوهم، علاوة على الأيتام المقيمين مع أفراد عائلته وحاشيته الذين يبلغون ١٣٠٠، بالاضافة لما يرسله للبلدان.

ج ــ كان كريما فداره مفتوحة وموائده مبسوطة.

د ــ في كل حجة قام بها ــ وعددها تسع حجات ــ يجود بالمال بذلا وعطاء، ويكثر الصدقات ومن يتصف بالبخل لا يبذل بمثل هذه الروح.

هـ ــ فلقد كان كثير الاهداء من باب تأليف القلوب، وكثير العطاء للأشراف والأمراء، والوجهاء، وشيوخ القبائل، بحيث استمال قلوبهم فأحبوه، اذ العادة بأن ينفر الناس من البخيل.

---

(٤) انظر «تاريخ البلاد السعودية» ــ الدولة السعودية الاولى عهد سعود بن عبدالعزيز الكبير، ص/١٨٠.

ومن يستقرىء تاريخ ابن بشر وهو ممن عاصر هذا الامام، فان الوقائع الكثيرة التي ذكرها تنفي هذا الادعاء الذي يعتبر من الدَّس في سيرته، وما أكثر دس اعداء الاسلام في رجاله وخاصة ذوي السيرة العطرة، بدءا بصاحب الرسالة، وحامل لواء الدعوة الى الله محمد بن عبدالله، ﷺ.. ثم من بعده حتى يومنا هذا.

ــ وهو لا يستأثر بالقيادة، وليس أنانيا، ولذا يلمس القارىء لسيرته بروز أسماء كثيرة في القيادة العسكرية التي اتسعت، فيضع اميرا لكل غزوة من أهل المناطق، القريبين منها، والمدركين لها بالمعرفة والدراية، سواء بطباع أهلها، أو عادات القبائل، أو بالطرق والبلدان.

وفي حالة بعثه احدا من قبله على مدد لتلك الغزوات، فانه يؤكد على كل قائد مدد، بأن يسمع ويطيع القيادة العامة التي اختارها من قبل.

ــ وهو يصر على تنمية العقيدة الاسلامية بصدق واخلاص في النفوس، باكثار الوعظ ومجالس الذكر، والمتابعة ومجالس العلماء، ويهتم باشاعة الأمن، ومعاقبة كل من يكسر هذا الطوق، وقد بدأ بشيوخ القبائل، فسجن كل من بدر منه شيء، وعاقب من استهان بهذا المبدأ.. فانقادوا له عن طواعية.

وقد اورد ابن بشر نماذج عن الأمن في عهد هذا الامام ووالده. فائقة الروعة.. خذ نموذج القصة التي اوردها ابن بشر عندما تلاحى في مجلس الامام شيخا مطير وعنزة كل منهما يلوم الآخر، يحاول الانتقاص من صاحبه.. عندها انتهض سعود وزجرهما وذكرهما بما أنعم الله به عليهما وعلى البلاد من نعمة الاسلام والجهاد والجماعة والاجتماع على الصلاة والدروس، الى آخر ما ذكر(٥).

وكما أسلفنا فلضيق الحيز المحدد لهذا القائد في مجالنا هذا.. فاننا سنعطي معلومات مختصرة عن أبرز المظاهر الاستراتيجية في حياته العسكرية.. حسبما تراءى للمؤرخ عثمان بن بشر الذي رصد المعلومات مما سمعه وشاهده، وما استفاض في مجتمعه، حيث عاصر الامام سعود بن عبدالعزيز عن كثب، وتعتبر جميع الدراسات والمعلومات التي رصدت عن هذا الامام عالة على ابن بشر، الا المصادر التي يتساور الشك فيها، وتظهر الظنون السيئة من كاتبها.

فقد ذكر ابن بشر: «لا يعلم بأن الامام سعود قد هزم له راية، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية، وكل أيامه مواسم، ومغازيه مغانم، وقذف الله الرعب في قلوب اعدائه، فاذا سمعوا بمغزاه ومعداه هرب كل منهم وترك اباه وأخاه وماله وما حواه»(٦).

ولعلنا لو أردنا معرفة أسباب هذه المكانة العسكرية، فاننا سنسير خطوات قصيرة مع هذا القائد لنأخذ نماذج من تلك السيرة التي تذكرنا بما كان يعمله اسلافنا الأوائل في الفتوحات الاسلامية من أعمال عطرة، فتحت آفاقا واسعة امام المدِّ الاسلامي ليشمل أرجاء المعمورة.

وما أحوج المسلمين اليوم، والأمم تتداعى عليهم كما تتداعى على قصعتها لمثل قيادة الامام سعود بن عبدالعزيز الجهادية في مثل أعمال يقوم بها هي نموذج القيادة الراشدة:

١ ــ اذا أراد الغزو لمكان يواري بغيره، فان اراد الشمال أظهر انه يريد الجنوب أو الغرب.

٢ ــ له طريقة في تجميع الجيش والعدة، فجنوده محاربون غير متفرغين، فكان يرسل رجالا لتجميع البادية من أقطار الجزيرة، للغزو معه، وينبهونهم الى المكان واليوم المحددين للالتقاء وعادة يكون هذا المكان احد المياه، فلا يتخلف أحد.

٣ ــ أما الحاضرة فيواعدهم ايضا موضعا معلوما، فيسارعون بالوصول اليه قبله.

٤ ــ لا يركب للغزو من الدرعية إلا في يوم الخميس او الاثنين، لافضليتهما على أيام الأسبوع حيث أخبر عليه الصلاة والسلام «**بأن العمل يعرض على الله فيهما**» فيخرج الناس قبله بيومين او ثلاثة، واذا خرج من القصر قصد المسجد الجامع الذي عند قصره، فيصلي فيه، ويطيل الصلاة، فاذا فرغ من صلاته ركب جواده ولا يتكلم بكلمة غير السلام، حتى يأتي الموضع الذي يريد نزوله بين الدرعية والعيينة. ويستخلف على الدرعية في غيابه احد بنيه، وكثيرا ما يستخلف ابنه عبدالله.

٥ ــ أما ما يحتاجه المجاهدون معه من امتعة ومؤنة لهم ولركائبهم، وهي ما يسمى في العصر الحاضر: «الامدادات والتموين»، فانها تسبقه في المسير خمسة عشر يوما.

٦ ــ يكثر الصدقات وقضاء حاجات المحتاجين قبل مسيره للجهاد، وفي موضعه الأول.

٧ ــ يهتم بتعاليم الاسلام، ويؤكد على الصلاة في جماعة لجميع أفراد الغزو، وقد جعل في كل غزوة امامين: الأول للغزو، فاذا انتهوا، صلى الثاني للمتخلفين، وأصحاب الأعمال

(٥) راجع «عنوان المجد» ص/ ٢٣١ ــ ٢٣٢.

(٦) «عنوان المجد»، ص/٢٢٦.

الحرفية الذين تخلفوا عن الجماعة الأولى. كما كان له مجلس يجتمع الناس فيه بين العشائين للدرس والمذاكرة، ونظم في قطاعات الجيش ايضا مجالس مماثلة.. من باب ترقيق القلوب وربطها بخالقها علميا ودينيا وخاصة في مثل موقف الجهاد في سبيل الله.

٨ ــ اذا قرب من العدو بنحو ثلاثة أيام يبعث عيونه لاستطلاع الأخبار، ثم يعدو فيباغت خصمه، واذا قرب من العدو يمنع ايقاد النيران في تلك الليلة، إمعانا في التستر والاختفاء.

٩ ــ وقبل نشوب المعركة يأمر المنادي لجميع السائرين معه بالحضور في مجلسه بعد صلاة المغرب، وبعد اجتماع شملهم يبدأ في وعظهم وتذكيرهم بمكانة الجهاد في الاسلام والمنهج الذي رسمه القرآن الكريم، والرسول ﷺ، وان عليهم السير وفق ذلك الخط، ويؤكده عليهم.

١٠ ــ كان يزجر جنوده عن العجب بالكثرة، والزيادة في النفوس، التي هي سبب الفشل والانهزام.

١١ ــ يحب ان تكون الغارة بعد صلاة الفجر المبكرة، حيث يعقبها ضجة بالتكبير ترهب الاعداء وتزلزل اقدامهم، بالأصوات التي يزيدها رعبا وتهويلا صدى الصوت في هدأة الفجر.

١٢ ــ لا يتعب نفسه ولا جيشه بالسير المتواصل، ذلك انه يتحين الأوقات المناسبة ويقيل في الهاجرة، ويقوم من مبيته ليواصل المسير قبل طلوع الشمس.

١٣ ــ كثير الاستشارة في أي أمر حربي ينويه، ويستفيد من آراء ذوي القدرة والموهبة: علماء وكبار السن، حاضرة وبادية.. فالحياة تجارب.

١٤ ــ كان ينهى عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الكبير لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك.

١٥ ــ يجعل لكل قطاع من قطاعات الجيش رئيسا يدبر شئونهم، ويتلقى التعليمات منه، فلديه رئيس للخيالة[٧]، ورئيس للطلائع[٨]. وسرايا يبعثها ويجعل عليها رؤساء[٩].

١٦ ــ بعد جمع الغنائم يأمر بالرحيل من مكان الموقعة وينزل على احد المياه فيقسم ما غنم في ذلك اليوم، حسبما افتاه العلماء في منهج الاسلام لتوزيع الغنائم، ذلك انه يصطحب معه علماء للفتوى والمذاكرة في كل امر أثناء جهاده.

(٧) انظر «عنوان المجد» ص/١٣٥.
(٨) نفس المصدر ص/١٣٦.
(٩) نفس المصدر، ص/٧٩.

١٧ ــ وحتى يضمن بقاء الناس الذين قاتلهم على دين الله، فقد كان يجعل عندهم مرابطة، ويهيء لهم من يعلمهم امر دينهم ويرشدهم في حياتهم العقائدية، وينصب عندهم قاضيا لإنهاء منازعاتهم وفق شرع الله، وعقيدة الاسلام[١٠].

هذه نماذج تهدف الى تسليط الضوء على جوانب من شخصية الامام سعود العسكرية واهتمامه بالجهاد في سبيل الله، وحرصه على حضور أكبر عدد ممكن من الغزوات، احتسابا للأجر، ورغبة فيما عند الله، مما دفعه الى استثمار جزء كبير من الفيء «الغنيمة» في التسليح لاخافة الخصوم وارهابهم، أخذا من قول الله تعالى: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**» فقد ذكر ابن بشر ايضا انه يتوفر لجيش الامام سعود من العدة الشيء الكثير في مثل:

ــ كان يملك الفا واربعمائة من الخيل العتاق، يغزو معه منها في كل معركة ستمائة.

ــ عنده من المدافع ستون مدفعا منها ثلاثون كبيرة.

ــ تزيد جيوشه في بعض المعارك على ثلاثين الف مقاتل.

ــ يهتم بالتحصينات، والانفاق على بناء القلاع، فقد بنى حصنا في بريدة، وآخر في السلمية بالخرج يعرف بقصر البدع، وقلعة في وادي فاطمة بالحجاز قرب مكة المكرمة[١١].

ــ يحب الأناة ويكره مبادرة أهل الشر عند أول شرهم[١٢].

ــ يهتم بالترتيبات والتحصينات العسكرية، ومن يجعلهم في الثغور مرابطين يغيِّرهم كل سنة، ويستبدلون بغيرهم متبعا في ذلك طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعدما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية[١٣].

**وبعد** كان السير مع جزئيات ومواقف هذا القائد، لمن الأمور المهمة والمشوقة والتي تذكرنا بصفحات التاريخ الاسلامي، ومواقف القادة العارفين بمهمتهم الحقيقية عملا، ويسعون لتطبيقها منهجا.

رحم الله الامام سعود بن عبدالعزيز الذي توفي فيما يبدو من تضخم البروستاتا. فقد كانت حياته صفحة مشرقة، تستوجب التوقف والتأمل والدراسة والامعان.. ثم أخذ ذلك نموذجا فذاً في حياته العسكرية المعاصرة وأنعم بها من نماذج مضيئة تعبر عن نفسها، وتشوق المتطلع فيها □

(١٠) راجع عن هذا «عنوان المجد» ص/١٣٦.
(١١) «عنوان المجد»، ص/٨١، ٩٠، ١٨٢.
(١٢) نفس المصدر، ص/١٧٠.
(١٣) راجع نفس المصدر، ص/١٩١.



# ما أغرب هالة الشمس

بقلم: د. محمد نبهان سويلم / القاهرة

أوضح كوكب في الكون اصعب الكواكب رؤية.. إنه الشمس، التي ننظر اليها في كبد السماء فنعشى فلا نرى منها شيئا، وننظر اليها بالمنظار باحتياط وحذر يمنع وهجها وشدة لمعانها فاذا بها قرص مستدير لونه أبيض لا شية فيه ولا ألوانا اخرى او بقعاً سودا. وننظر اليها بالمنظار بوقاية وعناية فنجد أنها قرص كامل محدد الاطراف تنتشر عليه الأمواج وقد امتدت رؤوسها وكأنها غازات تخرج منها وتفور عند الشمس وكأن مادتها في صراع لم يهدأ ولن يهدأ.. وقطر الرقطة منها ما يقرب من ٨٠٠ كيلومتر.

وعلى سطح الشمس بقع سود .. انها مناطق أقل توهجا لانها أقل درجة حرارة لهذا يظهر تميزها عما حولها. وقد تصل حرارة هذه البقع الى ألف درجة مئوية وقد تصغر مساحة بعض هذه البقع لتصبح بضع مئات من الكيلومترات وقد تكبر فتكون عشرات الألوف من الكيلومترات، وقد تتجمع فيمتد طولها الى ٣٠٠ ٠٠٠ كيلومتر وقد تتجمع فتصبح مساحاتها لا حد لها ولا اول لها ولا آخر.

هذا هو السطح الخارجي للشمس وهو ما يسمى بالغلاف الضوئي او الطبقة المرئية (فوتوسفير) لان منها يخرج النور الينا فنرى الشمس ونرى كل شيء من الكون ما دام كان واقعا في مجال قدرتنا البصرية.

ولكن الأبدع والأروع يقع في هذا الغلاف الغازي المضيء الذي يظهر للعين وكأنه تاج مرصع او عقد لؤلؤ عندما يقع القمر على الخط الواصل الوهمي بين الأرض

والشمس اي عندما يحدث كسوف كلي، وهو يحدث بمعدل مرة واحدة كل سنة فاذا بهالة الشمس تبدو للعيان وللأجهزة حيث يستعد العلماء والباحثون وهواة الفلك ايما استعداد لرصد هذه الظاهرة. ولقد اعتقد العلماء أن الشمس ليست مجرد كوكب نجم ساخن في المجرة وانما هي قطعة جرم سماوي ديناميكي له تأثيرات بعيدة مما يجعل من تداخل المادة والمجال المغناطيسي امرا واقعا.

إن الضوء الذي تعكسه هالة الشمس اقل شدة من ضوء الشمس بحوالي مليون مرة مما يدل على شفافيتها ونقص كثافة المادة بها، فهي أقل كثافة من جو الأرض بملايين المرات وتتألف من الايدروجين، الوحدة النباتية للكون،وغاز خامل يطلقون عليه اسم الهليوم وهو الشقيق الأول لغاز الايدروجين من حيث ترتيب العناصر، وهذا التأين الغريب والمنير يجعل من هالة الشمس وكأنها نوى ذرات والكترونات تدور حول بعضها هناك على بعد بلايين البلايين من الكيلومترات.

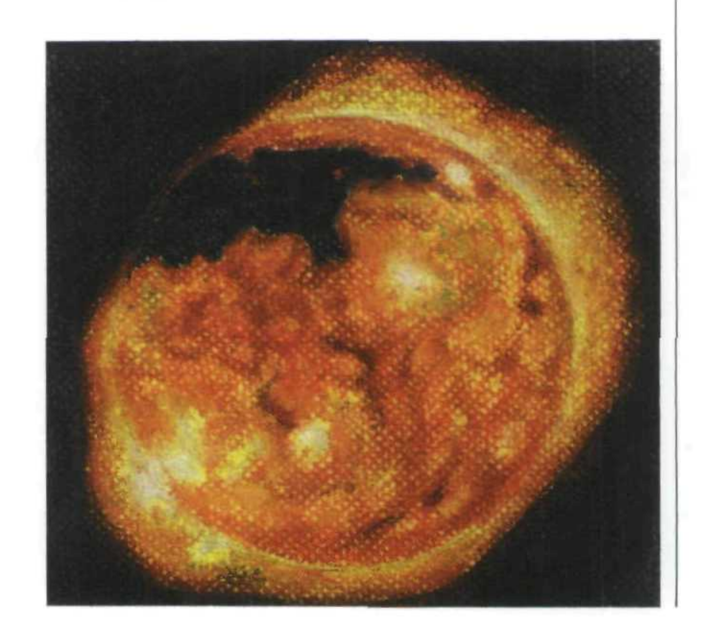
هذا التكوين النادر والتركيب القريب والتناقض الصارخ بين ما وجدوه وبين القوانين الأرضية عن الديناميكا الحرارية مما دعا العلماء الى الالتفاف على قواعدهم وقوانينهم، فقد ذكروا أن الطاقة الحرارية على الأرض تنتقل من الجسم الاكثر سخونة الى آخر أقلّ سخونة. لكنهم هناك، وجدوا عكس ذلك تماما حيث تنتقل الحرارة من الجسم البارد الى الجسم الساخن، كيف؟

امر محيِّر حاول العلماء تفسيره وفق قواعد جديدة ابتدعوها حتى تتمشى مع الظاهرة الفريدة وقالوا ان هناك تحولا مباشرا من الطاقة الميكانيكية الى الطاقة الحرارية، فالطاقة الميكانيكية التي تنشأ على سطح الشمس نتيجة الانفجارات النووية والتدفق الحراري المصاحب لها، كل ذلك ينتقل الى هالة الشمس على هيئة موجات صوتية محملة بقدر وافر من الطاقة او بصورة موجات مغناطيسية ومن ثم تتحول الى طاقة حرارية تسخن غازات هالة الشمس.

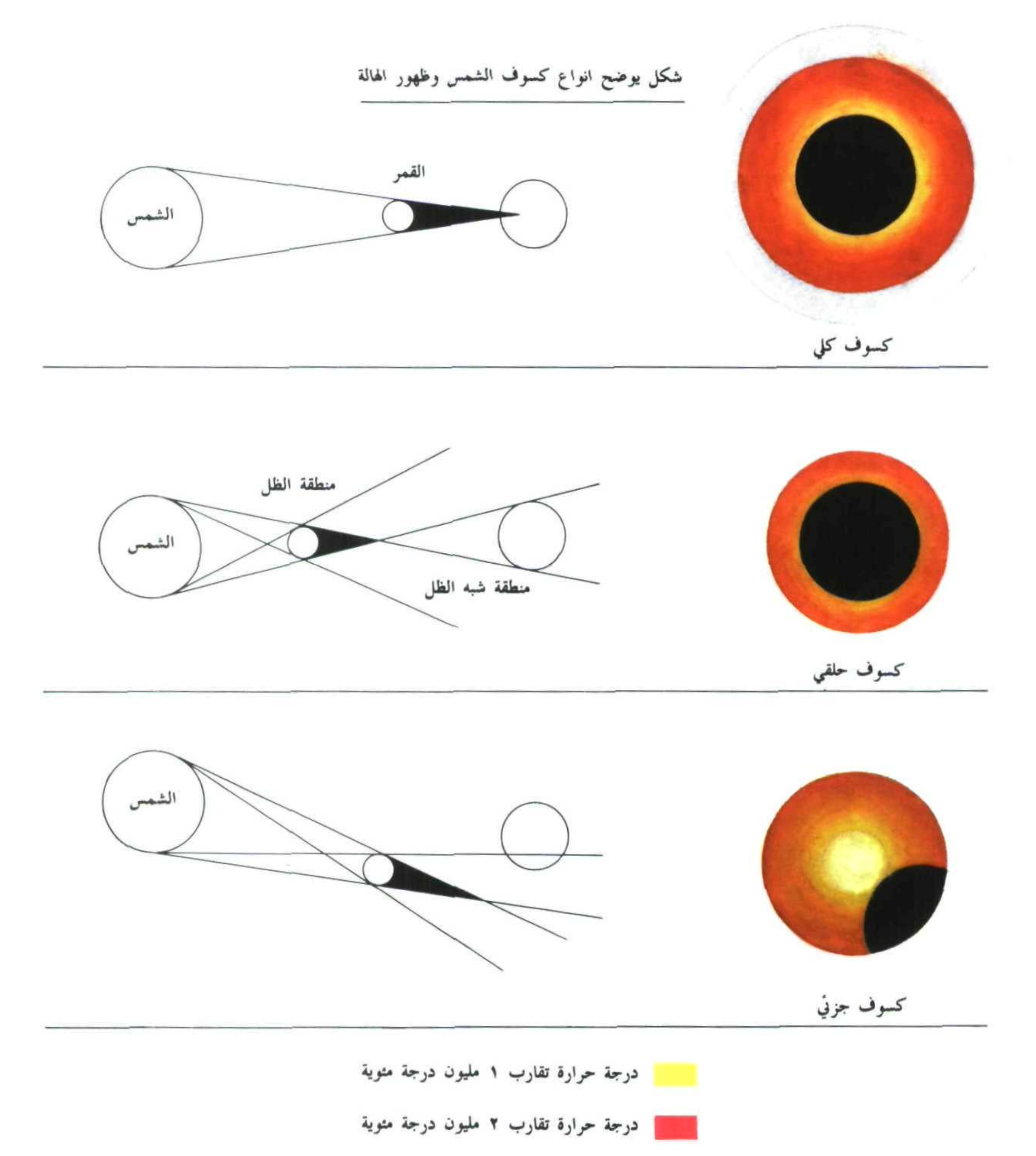
تفسير منطقي قد يقبله البعض وقد يرفضه آخرون او يطلبون على الأقل اثباتا علميا لا يقبل الشك، فان اثبتت البحوث الجارية صحة التداخل بين المادة والحرارة والموجات الصوتية والمغناطيسية،فمن شأن هذه النتائج ان تقود الى فهم أكثر وأعمق للظواهر الشمسية المحيرة مثل البقع الشمسية والفتائل والسنبليات وألسنة اللهب وغيرها.

ان «الكرونا» هي الطبقة العليا للغلاف الجوي للشمس، وهي لا تُرى كما أوضحنا في غير أوقات الكسوف وان كان يمكن الآن رؤيتها باستخدام جهاز «الكرونوجراف» الذي يقوم بعمل كسوف صناعي،وبذلك تبدو لنا بوضوح طبقة الهالة الشمسية. حيث يلعب المجال المغناطيسي للشمس دورا هاما في تكوّن الهالة الشمسية.

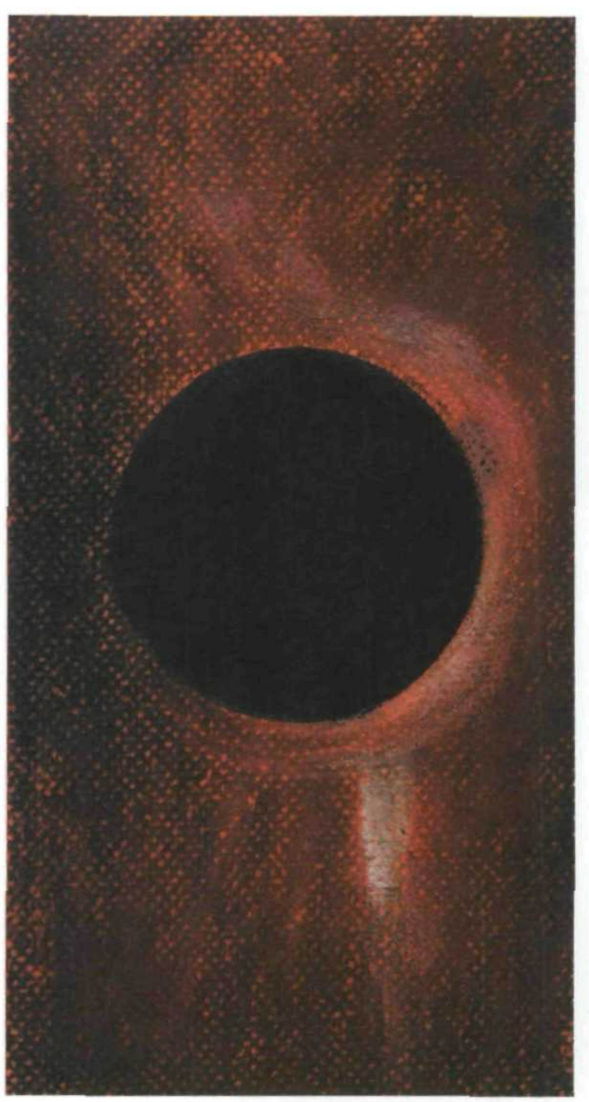
ونقرأ معا ما ذكره «ريتشارد وولف صن» في دراسته الرائعة عن هالة الشمس النشطة والتي نشرها في مجلة «العلمي الامريكي» في عدد فبراير ١٩٨٣م مزودة بالصور عن هذه الظاهرة الفريدة حيث يقول: «لقد اثبتت معظم الصور الفوتوغرافية ان الهالة الشمسية ليست متناظرة وغالبا ما تظهر اكثر اعتاما واقل امتدادا في الفضاء عن الأقطاب الشمسية. اما بعيدا عن الأقطاب فانها تبدو اكثر بروزا وامتدادا في الفضاء. وعدم التناظر هذا يبدو من كسوف الى آخر، واكثر الهالات انتظاما تتوافق زمنيا مع فترات النشاط الشمسي مرة كل احدى عشر سنة. ففي ابريل عام ١٩٨٠ تم استخدام جهاز «الكرونوجراف» على سطح القمر الصناعي الشمسي حيث حجب جهاز «الكرونوجراف» بريق الأشعاع الشمسي من طبقة «الفوتوسفير»، كما حجب بريق قرص الشمس ذاته مما وضح أبعاد الهالة بعدة ملايين من المرات حيث التقطتها العدسات وارسلتها الى الأرض وأعيد تجميعها بألوان اختيارية.








وجهاز «الكرونوجراف» انما يمرر اشعة الشمس عبر مرشحات ضوئية خاصة يسمح تركيبها بمرور الضوء اكثر كلما زاد البعد عن قرص الشمس نحو اطراف الهالة وذلك لتعويض التناقص من شدة الاضاءة، وقد أمكن بهذه الطريقة الحصول على صور رائعة للهالة الشمسية تبدو فيها ألسنة اللهب ممتدة عدة ملايين من الكيلومترات بعيدا في الفضاء، وهي تراكيب دائمة الظهور والاختفاء حول أتّون الشمس وتتغير اشكالها بين فترات النشاط الشمسي المختلفة، وغازات الهالة تصل درجة حرارتها قرابة المليون درجة — سطح الشمس درجة حرارته ٦٠٠٠ درجة مئوية فقط — حيث تشكل هذه الغازات منبعا غزيرا لأشعة اكس بينما لا يصدر عن سطح الشمس مثل هذه الأشعة، مما أتاح تصوير الشمس ذاتها واكتشاف البقع الساخنة فيها في ١٨ سبتمبر عام ١٩٧٣م بواسطة أجهزة خاصة في المعمل الفضائي المعروف باسم «سكاي لاب» وتبدو مناطق الهالات الشديدة. وقد اظهرت الصورتان نقاطا برّاقة لامعة مناظرة لامواج وتيارات غازات الهالات الممتدة في الفضاء، بينما المناطق الداكنة توضح ثقوبا هالية أي ذات نشاط منخفض.



حالة كسوف كلي للشمس

**ولقد** اثبت العلماء ان الشوارد الغازية لهالة الشمس ضمن حقلها المغناطيسي ادى الى اكسابها صفات جديدة على ما نعرف من مواد، ويطلق العلماء على كتلة الغازات المتأينة في المجال المغناطيسي اسم «البلازما» التي تعد الحالة الرابعة للمادة بعد الحالات الثلاث المعروفة الصلبة والسائلة والغازية، ويندر وجود هذه الحالة على الأرض بعيدا عن الضوابط المعملية والعلمية،في حين نجدها في الشمس هي الحالة الغالبة، وعلى هذا فوجود البلازما سبب أساسي في تشكيل الرياح الشمسية التي تنطلق بسرعة لا تقل بحال عن ٤٠٠ كيلومتر في الثانية مما يجعلها تشوه المجال المغناطيسي للأرض وتربك المواصلات اللاسلكية على الأرض مثل الاتصالات والبث الاذاعي والتليفزيوني،التي تربك عند هبوبها قراءة أجهزة البوصلة مما يؤدي الى انحراف الطائرات والسفن عن مساراتها المألوفة ويتسبب في كوارث جوية وملاحية كثيرة.

ويصل تأثير العواصف والرياح الشمسية الى أبعد من الأرض ويصل هبوبها الى مشارف كوكب المشتري الذي يبعد عن الشمس خمسة أضعاف بُعد الأرض عنها مما قد يؤثر على مناخه كما يؤثر على الأجرام السماوية التابعة لها.

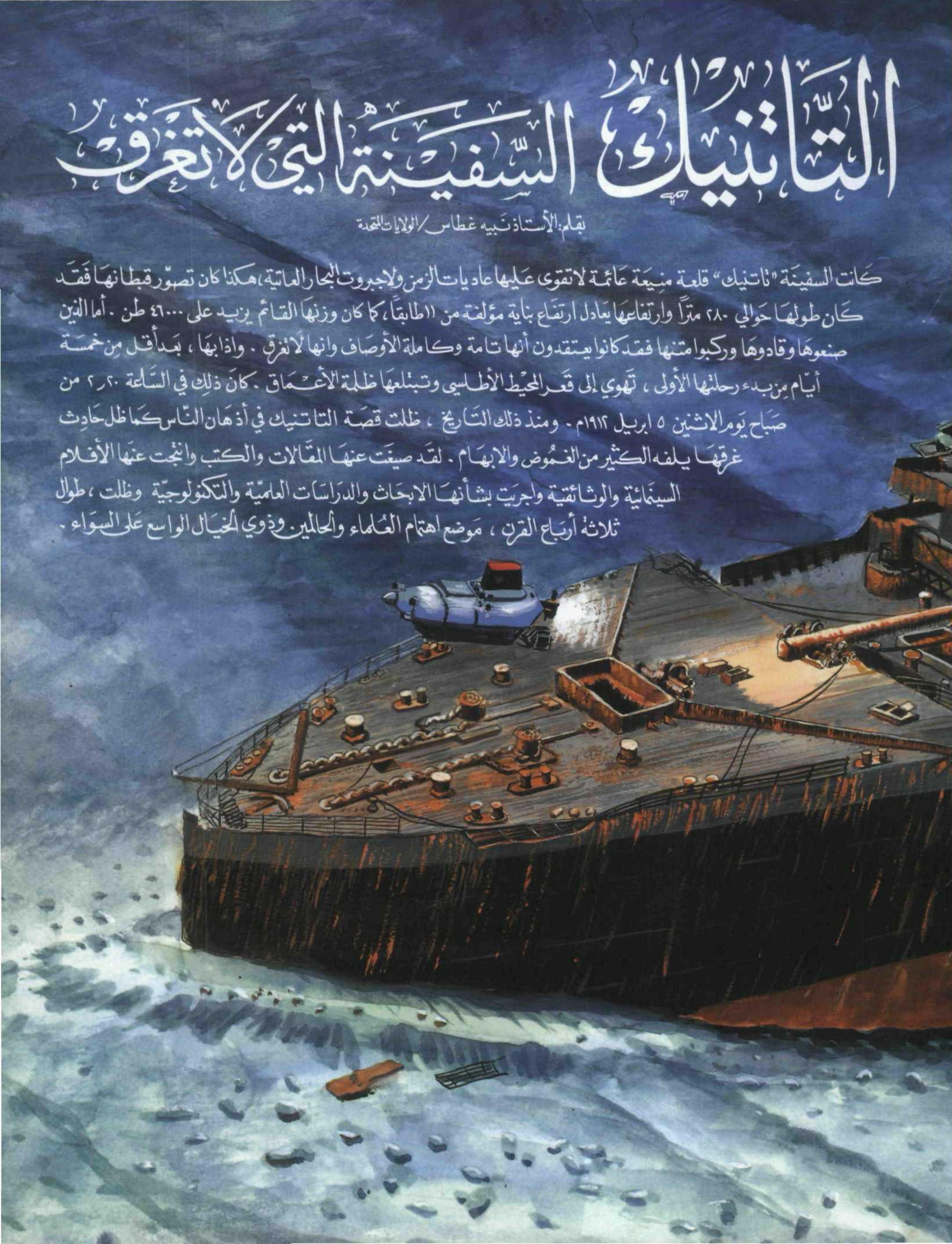
ولقد شاركت الحاسبات الالكترونية مشاركة جادة وعميقة في دراسة الهالات الشمسية وتأثيرها على الأرض بداية من تحويل النبضات الالكترونية الصادرة عن اجهزة القمر الصناعي للشمس SMM، وهي اختصار لـ Solar Maximum Mission Satellite الى صور ضوئية الكترونية ومتابعة النتائج ورصدها، واعطاء نماذج للهالة حتى يستطيع العلماء دراسة سرعة حركة البلازما وامتدادها. ففي الصورة بالشكل (٣) التي التقطت في ١٤ ابريل عام ١٩٨٠م بعدسات SMM تم عزل حدود الصورة بالحاسب الالكتروني للحصول على مزيد من التفصيلات وتحديد كثافات مناطق الهالة في الشكل رقم (١) مما ساعد العلماء كثيرا وأثرى نتائج دراساتهم.

وفي مجال دراسة الهالة قام معمل بحوث الفلك بالبحرية الأمريكية بوضع نموذج لها بناء على نموذج رياضي اقترحه «ريتشارد وولف صن» حيث تمثل المنحنيات تطور نمو الهالة داخل نطاق المجال المغناطيسي للشمس حيث تنتشر أمواج الهالة انتشارا واسعا في الفضاء الكوني يؤدي الى انطلاق الاطراف بسرعة أعلى كثيرا من سرعة انطلاق موجات الهالة الملاصقة نسبيا لسطح الشمس حيث فسّر الأمر من اشكال الهالات نفسها. فكما تصطف برادة الحديد عند نثرها حول قضيب مغناطيسي كذلك تفعل غازات الهالة الشاردة ضمن المجال المغناطيسي للشمس، ولا يكون التغير في تركيب الهالة وأشكالها الا نتيجة للتغيرات كثيرة الحدوث التي تطرأ على هذا المجال، كما هي الحال بالنسبة للمجال المغناطيسي للأرض والكثير من الحقول المغناطيسية الكونية، حيث أن الحقل المغناطيسي الشمسي يتدخل في حركة جزيئات الغاز المشحونة.

إلا أن السؤال الذي يظل بحاجة الى اجابة.. لماذا تحدث تغيرات كثيرة في المجال المغناطيسي للشمس؟ لقد لوحظ انه خلال احدى عشرة سنة ينعكس وضع قطبه الشمالي مع قطبه الجنوبي،وبذا يصبح المجال المغناطيسي قريبا من مناطق نشاط شمسي ضعيف، ومشوشا ولا تظهر اتجاهات محددة للأقطاب؟

**أسئلة** كثيرة وغرائب تفوق تصور خيال الانسان وقدراته الذهنية. وكلما حاول العلماء التعمق في دراسة الكون أكثر وأكثر، اكتشفوا أنهم لا زالوا في بداية الطريق ويحتاجون الى جهد وعمل مضنيين. فالكون أغرب وأعظم وأروع مما نتصور. فسبحان الخلاّق العليم□





# التايتنيك السفينة التي لا تغرق

بقلم: الأستاذ نبيه غطاس / الولايات المتحدة

كَانت السفينَة "تايتنيك" قلعة منيعة عَائمة لاتقوى عَليها عاديات الزمن ولاجبروت البحار العاتية، هكذا كان تصوّر قبطانها فقد كَان طولهَا حوالي ٢٨٠ متراً وارتفاعها يعادل ارتفاع بناية مؤلفة من ١١ طابقاً، كما كان وزنها القائم يزيد على ٤٦٠٠٠ طن. أما الذين صنعوهَا وقادوهَا وركبوا متنها فقد كانوا يعتقدون أنها تامة وكاملة الأوصَاف وانها لا تغرق. واذا بها، بعد أقل مِن خمسة أيّام مِن بدء رحلتها الأولى، تهوي إلى قعر المحيط الأطلسي وتبتلعهَا ظلمة الأعماق. كان ذلك في السّاعة ٢٫٢٠ من صَباح يوم الاثنين ٥ ابريل ١٩١٢م. ومنذ ذلك التاريخ، ظلت قصة التاتنيك في أذهان النّاس كما ظل حادث غرقهَا يلفه الكثير من الغموض والابهام. لقد صيغت عنها المقالات والكتب وانتجت عنها الأفلام السينمائية والوثائقية وأجريت بشأنها الابحاث والدراسات العلميّة والتكنولوجيّة وظلت، طوال ثلاثة أرباع القرن، موضع اهتمام العُلماء والحالمين وذوي الخيال الواسع على السواء.

# الرحلة اليتيمة

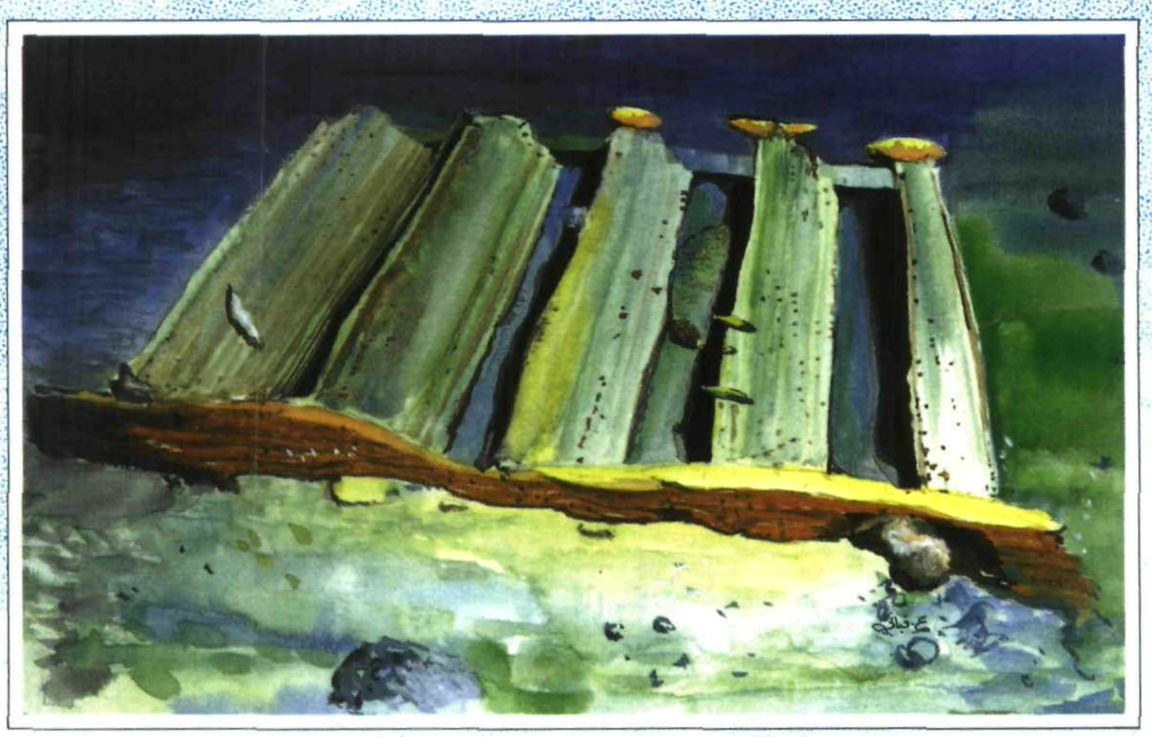
أبحرت التاتنيك، وهي أكبر وأفخم سفينة تجارية عرفها العالم يومئذ، من مدينة «سوثامبتن» في انكلترا الى مدينة نيويورك وكانت في رحلتها التدشينية الأولى، وقد استقطبت أكثر من ٢٢٠٠ مسافر كان معظمهم من المشاهير والأثرياء في الغرب في ذلك الوقت. وكان بينهم ايضا أكثر من ٧٠٠ مهاجر في طريقهم الى الولايات المتحدة.

وفي اليوم الرابع من الرحلة، كان كل شيء على ما يرام، كان الطقس صحوا والهواء منعشا، وجميع ركابها في جو من البهجة والمرح.

وفي الساعة التاسعة من صباح الأحد، تلقى قائدها «سميث» رسالة تلغرافية من احدى السفن المبحرة في تلك المنطقة تقول ان هناك جبلا من الجليد يعترض طريق التاتنيك. وعند الظهر تلقى رسالة من سفينة اخرى تحذره من وجود حقل من جبال الجليد في تلك المنطقة، وبعدها رسالة ثالثة ورابعة، ولكن القبطان لم يكترث لأي منها بل كان يناولها لمرؤوسيه دون أن يتخذ بشأنها أي قرار أو اجراء لتجنب الأخطار المحيقة بسفينته. ولعل ذلك التصرف ــ او عدم التصرف ــ كان ناشئا عن الوهم الخاطىء لديه بأن التاتنيك سيدة البحار وقاهرة الأمواج وأنها لا تغرق!



وعاء فضي للحساء لا يزال يلمع مع انه مضى عليه نحو ثلاثة أرباع القرن وهو في قاع البحر فوق السفينة المنكوبة.

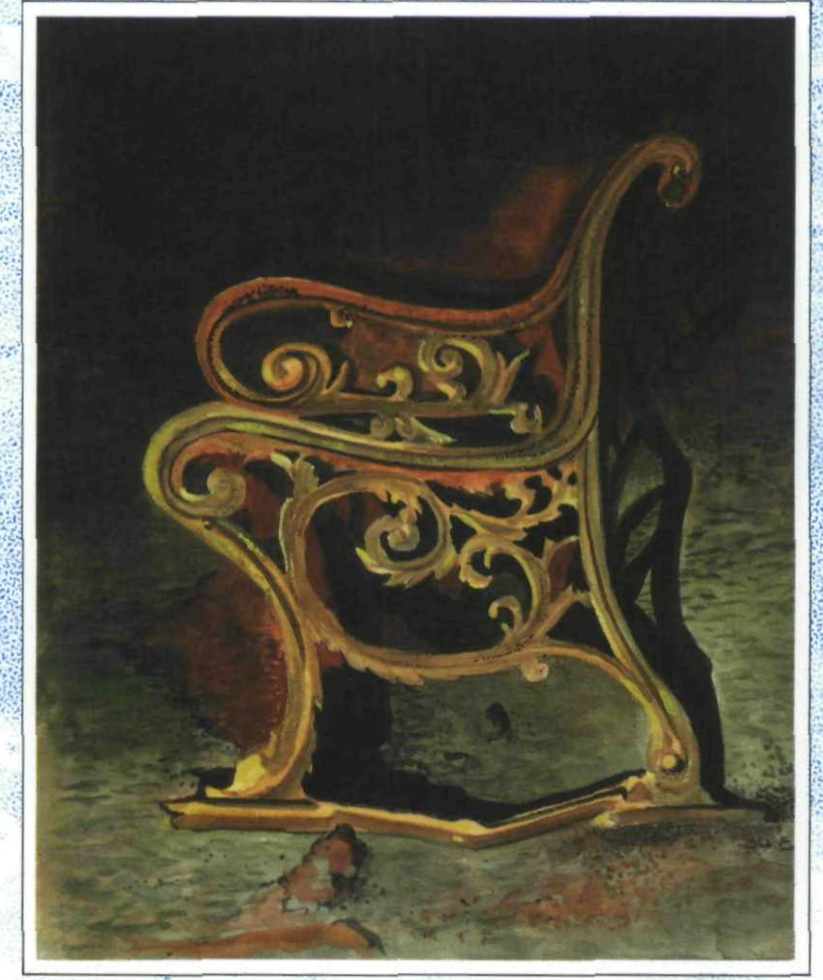


سلم خشبي متماسك نوعا ما، مع أن الدويبات قد أكلت معظم الأخشاب في السفينة.

وعند حلول الظلام، كانت السماء صافية والبحر هادئا كأنه لوح من الزجاج الصقيل. وفي الساعة ١١,٤٠ ليلا لاحظ احد الضباط وجود شيء في طريق السفينة. كان ذلك الشيء أول الأمر صغيرا وأكثر ظلمة من ظلمة الليل، وسرعان ما راح يكبر ويقترب. اتصل الضابط بمركز القيادة وبلّغ رؤساءه بما رأى فتبلغوا دون ابداء اي اهتمام يتناسب مع حجم هذا الخطر. وبعد قليل تلقى القبطان أمراً بأن ينحرف بالسفينة عن مسارها المقرر قليلا حتى يتجنب الاصطدام مواجهة بذلك الشيء، الذي لم يكن بالفعل سوى جبل من الجليد. ويبدو ان القبطان تمكن من إبعاد مقدمة السفينة عن الجبل العائم، إلا أن جانبها احتك به بعنف فراحت كتل الجليد تتساقط على سطح السفينة. وبعد لحظات اصطدم اسفل السفينة وجدار غرفة المحركات بالجزء الواقع تحت الماء من جبل الجليد مما أدى الى فتح ثغرة كبيرة فيهما تدفق على اثره الماء الى غرفة المحركات ومستودع الفحم.



كان تأثير التيار البحري قليلا على هذا «القدر» النحاسي.



هيكل حديدي لمقعد تآكلت أخشابه، ويحتفظ بنقوشه الجميلة مع ما يعلوها من الصدأ.



قنديل من النحاس والبلور كان مثبتا في احدى غرف الركاب.

أما الركّاب، الذين كانوا في ذلك الحين يستعدون للنوم، فقد خرجوا من مخادعهم أول الأمر بدافع الفضول لمعرفة ما حدث، ثم اعتراهم الخوف والهلع عندما ادركوا ان سفينتهم العاتية وقعت فريسة لما هو أعتى وأقوى. وظل الماء يتدفق الى جوف السفينة فملأ المستودعات وغرف المراجل والآلات، وبعد جولة خاطفة في أنحاء السفينة، أدرك القائد «سميث» ورفاقه هول ما حدث وأيقنوا أن غرق «التاتنيك» آت لا محالة وأنها في طريقها الى أعماق المحيط. فأمر بانزال قوارب النجاة البالغ عددها عشرين قاربا كانت كافية لحمل حوالي ١١٨٠ راكبًا فقط من ٢٢٠٠ راكب كانوا على متن السفينة.

وفي حوالي الساعة ١٢,١٥ بعد منتصف الليل كان الركاب قد خرجوا من مخادعهم وتجمعوا على سطح السفينة يلفهم الليل المظلم البارد والخوف من المصير المجهول.

وراحت «التاتنيك» تطلق اشارات الاستغاثة لعل أحدا يأتي الى منطقة الحادث لانقاذ الركاب. وكان هناك بعض السفن تبحر على مسافة أميال من «التاتنيك»، من بينها السفينة «فرانكفورت» و «مونت تمبل» و «كاليفورنيان».

## بدء الانقاذ

في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بدأ ضباط «التاتنيك» يأمرون النساء والأطفال بركوب قوارب النجاة، فرفض منهم من رفض ولكن الباقين سارعوا الى ركوب القوارب دون تردد. ومرت دقائق قليلة قبل أن تمتلىء القوارب بالناس، وفي هذه الأثناء هوت مقدمة السفينة وغاصت في البحر حتى وصل الماء الى الجزء الأمامي من السطح الذي كان مخصصا للقوارب.

لقد وصف أحد الركاب الذين نجوا من الموت هذه اللحظة الأخيرة من غرق «التاتنيك» بقوله «كنا نراقب السفينة من القارب رقم ٧ عن مسافة كيلومتر تقريبا. لقد غاصت مقدمتها في الماء وراح ذيلها يرتفع ويرتفع كأنه ذراع فتاة ممدودة الى السماء تستغيث وتسترحم. وبعد لحظة أصبحت السفينة في وضع عمودي وظلت على هذه الحالة المفجعة دقائق معدودة بلا حراك».

وكانت قوارب النجاة تضم خليطا من المسافرين يمثل الأثرياء والفقراء، مشاهير الناس والمغمورين والمهاجرين من

قارة الى أخرى سعيا وراء لقمة العيش. كلهم وقفوا معا في هذا الخضم، وأمامهم خليط من نوع آخر على وجه الماء يتكون من أطعمة ومقاعد وأطنان من الفحم الحجري وملابس وتركيبات تجهيزات مختلفة. تحطم كل شيء، حتى آلات السفينة راحت تتفكك من قواعدها وتتناثر هنا وهناك، وفجأة انطفأت الأنوار وواصلت السفينة انحدارها البطيء في الماء. وبعد دقيقتين ابتلعها البحر ولم يبق وراءها سوى عدد من القوارب، تحمل فئات من الركاب، وحولها مجموعة هائلة من الحطام المتناثر.

وكتب فيما بعد مسافر آخر نجا من الغرق: «كانت تتصاعد الى السماء أصوات مفجعة مريعة. وكان الصراخ يتعالى من أكثر من ألف حنجرة وكانت صيحات وأنات تنطلق من صدور الناجين الذين تركوا احباءهم على ظهر السفينة، وها هم الآن يقفون أمام مصير غامض لا يعلمون ماذا سيحل بهم في هذا البحر العاتي المظلم»

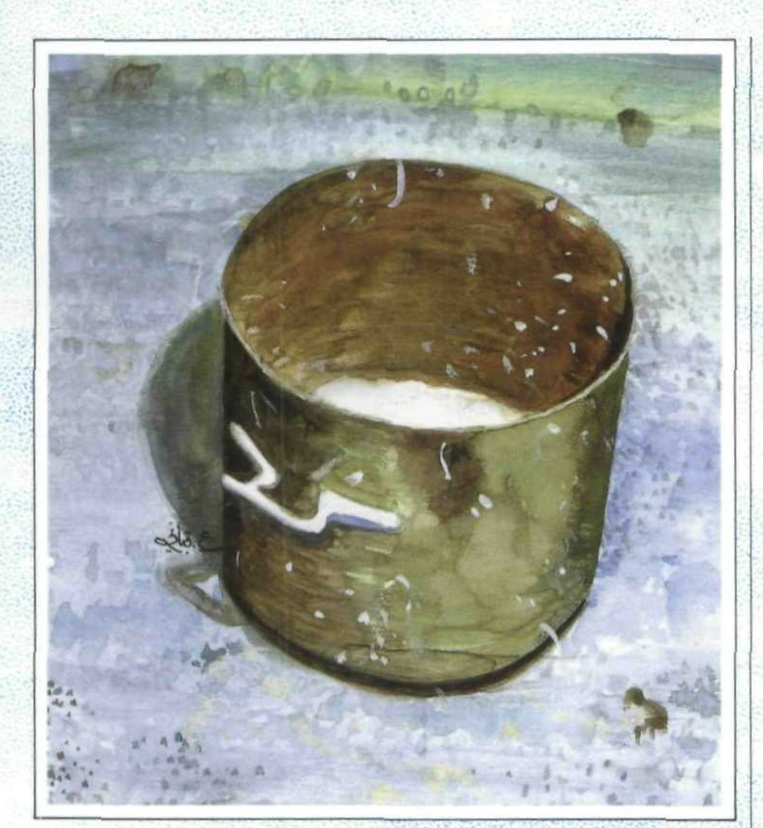
كان غرق «التاتنيك» في تمام الساعة ٢,٢٠ بعد منتصف الليل. وطلع فجر اليوم التالي وأشرقت الشمس على المنطقة، التي أصبحت الآن قبرا لـ «التاتنيك». وظل الركاب في القوارب الى ان وصلت السفن التي كانت مبحرة في تلك المنطقة. لقد أفاد قائد السفينة «كاليفورنيان» في ذلك الحين بأنه لم تكن هناك أية أجسام بشرية في موقع الغرق، إلا أن بعض الركاب أبلغ فيما بعد أن مئات من الجثث كانت تطفو على وجه الماء. وبعد اسبوع من حادث الغرق تمكنت السفينة «ماك ـــ كابي بنت» بالفعل من التقاط ٣٠٦ جثث طافية على الماء وهي في وضع عمودي. كانت رؤوس وعظام معظم الضحايا محطمة من هول الصدمة، وقد عثر على عدد من النساء يحتضن اطفالهن ووجوههن مشوهة.

قبل غرقها التام بقيت «التاتنيك» في وضع عمودي لبضع ثوان ثم ابتلعها اليم فجأة وبدأت رحلة الانحدار الى الأسفل. وكانت في انحدارها قد استعادت شيئا من وضعها الأفقي إلا أنها راحت، بعد قليل، تتأرجح الى الأمام والوراء كأنها ريشة في مهب الريح. وأخيرا وبعد عشر دقائق من الانحدار استقرت في قعر المحيط البارد المظلم على عمق ١٣٠٠٠ قدم تحت ضغط من الماء يبلغ ٢٨٩٣ كيلوغراما على البوصة المربعة.

وبهذا تكون رحلة «التاتنيك» ـــ الأولى والأخيرة ـــ قد استغرقت أربعة أيام و١٧ ساعة و ٣٠ دقيقة.

## البحث عن التاتنيك

بعد يومين من غرق «التاتنيك»، اجرى مجلس الشيوخ الأمريكي ووزارة التجارة البريطانية تحقيقات مسهبة في ذلك الحادث وتوصلا الى النتيجة التالية: ان قائد «التاتنيك» قد أهمل الانذارات الكثيرة التي تلقاها بوجود جبال من الجليد في



قدر لم يتأثر كثيرا بالعوامل البحرية.

المنطقة وأن السفينة كانت تمخر البحر بسرعتها العادية وسط هذه الجبال الجليدية الخطرة! وبعد مضي سنوات عديدة، لم يتوصل المحققون الى معرفة أمور وخفايا عديدة اكتنفت هذا الحادث، ولكن مأساة «التاتنيك» ظلت في الضمائر وكان ذكر اسمها يكفي لأن يثير في قلوب الناس مشاعر الأسى واللوعة.

لقد كتبت عدة كتب عن غرق «التاتنيك»، منها كتاب ولتر لورد بعنوان «ليلة تذكر» وكان هذا الكتاب أساسا لعدد كبير من الأفلام السينمائية والتلفزيونية. وقد أدت هذه الأعمال الفنية الى إحياء الاهتمام، مرة أخرى، بقضية البحث عن «التاتنيك».

وقبل حوالي عشرين عاما راح علماء البحار يفكرون جديا في إمكان البحث عن «التاتنيك» وانتشالها من قعر المحيط. وشجعهم على ذلك السعي الحثيث الذي جرى في ذلك الحين لانتشال الغواصة الذرية «ثرشر» التي غرقت عام ١٩٦٣، فانصرفوا الى ابتكار المعدات والأجهزة المناسبة للبحث عنها. وقد حاولت سفينة الاستكشاف «اتلانتس» أخذ صور فوتوغرافية للغواصة المذكورة، فأنزلت الى الأعماق «كاميرا» وزنها ٢٢٥ كيلوغراما. وكانت هذه المحاولة شاقة للغاية أو، كما قال رئيس المعهد الذي أشرف على تلك العملية، «كانت كمن يحاول ان يسقط بيضة من أعلى ناطحة سحاب في كوب ماء في يوم عاصف وهو مغمض العينين».



جانب من سرير نوم محطم، حفظ الصبغ بعض أجزائه من الصدأ.

وقد أخذت صور كثيرة للغواصة، ثم تمكن بعض الغواصين من الهبوط الى اعماق البحر وانتشال قطع من حطامها. وفي عام ١٩٦٨، غرقت غواصة روسية الى الشمال الغربي من جزر هاواي فتمكن العلماء من تحديد المكان الذي غرقت فيه بواسطة معدات استقراء حساسة و «كاميرات» دقيقة وأجهزة لقياس الجاذبية المغناطيسية، كما استعملت البحرية الامريكية جهازا على شكل خطاف ضخم مركب في ظرف حبل طوله ثلاثة أميال لانتشال جزء من الغواصة المذكورة الى سطح الماء.

وفي عام ١٩٧١، عرض الجيولوجي البحري «روبرت بولارد» استخدام «كاميرا» خاصة تركب في طرف ماسورة حفر لتحديد مكان «التاتنيك» وتصويرها. كما عرض، في المرحلة التالية، ان يغوص الى الأعماق في جهاز يدعى «ألفن»، إلا أنه كان بحاجة الى من يمول هذا المشروع الضخم.

وفي عام ١٩٨٠، أعلن الجيولوجي البترولي «جاك غريم» عن استعداده تمويل أي مشروع يهدف الى البحث عن «التاتنيك» وانتشالها. فاتصل به عالم المحيط «وليم ريان» من جامعة كولومبيا، وعرض أن يساعده في تلك المهمة مقترحا ان يستعمل، بالاضافة الى معدات كثيرة أخرى، أجهزة قياس الجاذبية المغناطيسية التي كانت قد استخدمت في عملية البحث عن الغواصة «ثرشر». غير ان المنطقة التي غرقت فيها «التاتنيك» كانت منطقة بركانية وعرة ذات مغناطيسية عالية يصعب فيها استخدام مثل هذه الأجهزة.

وقد فشلت محاولة «ريان» بعد أن تمكن من رسم خرائط لمنطقة من المحيط مساحتها ٥٠٠ ميل مربع، وذلك بسبب حدوث عواصف عاتية حطمت كل الأجهزة والمعدات، كما فشلت محاولة اخرى عام ١٩٨٠ وثالثة عام ١٩٨٣.

وعاد «روبرت بولارد» الى المسرح مرة أخرى محاولا الاستفادة من النتائج التي توصل اليها الآخرون ومن تجاربهم وأخطائهم. وطلب من عالمين فرنسيين هما «جان جاري وجان ـ لويس ميشال» من معهد اكتشاف البحار الفرنسي ان يساعداه في مشروعه. وراح هؤلاء الرجال يدرسون خرائط وسجلات «التاتنيك» البحرية ليتأكدوا من المسار الذي سلكته بالضبط، ومن المنطقة التي يحتمل ان تكون قد غرقت فيها. وفي يونيه ١٩٨٥ حصل هؤلاء الرجال على موافقة الحكومة الامريكية والفرنسية وكذلك على الأموال اللازمة لمساندة عملياتهم الاستكشافية.

وفي الأسبوع الأول من يونيه غادر ميشال ورفاقه الشاطىء الفرنسي على متن السفينة «لوسيروا»، وعند وصولهم الى موقع «التاتنيك» بدأوا «يحرثون في البحر» ـ على حد تعبير ميشال، الذي كان يشرف على عملية التصوير والتصنت في تلك المنطقة. كانت الأجهزة التي استعملوها دقيقة وحساسة للغاية، منها جهاز رادار وآخر للتأكد مما اذا كانت الأجسام المكتشفة معدنية ام لا. وكانت التيارات على سطح الماء والرياح العاتية تعيق عملية تثبيت المعدات وجمع المعلومات والتصوير. وظل العمل متواصلا، إلا أنهم لم يعثروا على «التاتنيك» الراقدة في قعر المحيط.



سمكة في قاع البحر تراقب طرف مجس مدته غواصة البحث الى كوب من الصيني لا يزال يحمل خاتم شركة الملاحة البحرية. وقد وجدت مئات من هذه الفناجين.

وفي ٧ أغسطس من العام نفسه شاهد ميشال و «بولارد» قوس قزح على الأفق فكان طالع خير بالنسبة الى العملية التي كانا مصممين على تنفيذها. وبعد خمسة أيام انضمت اليهما السفينة «نور» المزودة بجهاز التقاط بحري يستطيع تحديد الموقع المطلوب بدقة لغاية ١٠٠ متر.

وكانت المنطقة التي يجري استكشافها في قعر المحيط تتكون من ثلاثة أنواع من الأرض: واد متشعب الأطراف، ومساحة تحتوي على كثبان رملية شبيهة بكثبان الصحراء، ومساحة من الأرض المغطاة بوحل كثيف لعله بقية من آثار هزة أرضية كانت قد وقعت في المنطقة عام ١٩٢٩.

وأسقط العلماء جهازين للكشف عن قعر المحيط عرفا باسم «ارغو» و «أنغوس» وكان كل منهما بحجم سيارة عادية يزن طنين ويستطيع العمل على عمق ٢٠٠٠٠ قدم، وفي ليل ٣١ اغسطس ١٩٨٥ سجلت عدسة «ارغو» قطعا من الانقاض في قعر المحيط، وبدت على شاشات الفيديو صور غبراء اللون لمكعبات من الفحم الحجري ومواسير معدنية. وبعد خمس دقائق ظهرت صور لمراجل «التاتنيك» التي كانت متناثرة في القعر، ثم ظهرت صور باهتة وغير واضحة لجسم كبير، فساد وجوم على أفراد الفريق الذين وقفوا يشاهدون شاشات «الفيديو»، وفجأة صرخ واحد منهم: «إنها التاتنيك، ها هي السفينة الغريقة مستقرة على جانبها!».

ثم ظهرت صور أخرى اكثر وضوحا: جزء من مقدمة التاتنيك، ثقب كبير في جانبها، المراسي ثم سلاسل المراسي، التي بدت وكأنها قطع من الحجارة. لقد شعر «بولارد» أثناء مشاهدته هذه الصور وكأنه «عالم آثار يفتح قبرا لاحد ملوك الفراعنة».

عاد الجهاز «ارغو» الى الطواف فوق «التاتنيك» وحولها. وفي احدى المرات لامس قاعدة احدى مداخن السفينة وكشط شيئا من الدهان الذي كان لا يزال عالقا على سطح معدنها.

وفي سبتمبر ١٩٨٥ عاد «بولارد» الى بلاده وسر لما لمسه من اهتمام الصحافة ووسائل الاعلام الأخرى بالمهمة التي كان ينفذها هو ورفاقه. وبعد أيام تلقى برقية من والدته تقول له فيها: «لقد أنجزت يا بني مهمة علمية رائعة. بقي عليك الآن ان تنتشل التاتنيك وترفعها الى سطح الماء».

أما «بولارد» نفسه فكان همه الأول انقاذ «التاتنيك» من «لصوص القبور» — كما يقول — إذ أن «التاتنيك» وفقا للقانون الدولي، تعتبر وهي في أعالي البحار ملكا مشاعا. واذا توفرت لمنطقة غرقها الحماية من الشركات الطامعة في جمع ما تحتويه من كنوز ومخلفات ثمينة، كسبائك الذهب والمجوهرات والأشياء التذكارية، فعلى المجتمع الدولي عندئذ أن يسارع الى اصدار اعلان يقرر ان الموقع المذكور مكان تذكاري يجب ان يتمتع بالحصانة الدولية التامة.

كان «بولارد» يؤمن بأن موقع غرق «التاتنيك» يجب أن يظل مكانا أثريا لاحياء ذكرى الركاب والبحارة الذين هلكوا في ذلك الحادث الأليم. وبعد شهر من اكتشاف موقع «التاتنيك»، توجه «بولارد» الى مجلس الشيوخ الامريكي وطلب من الحكومة الامريكية ان تعلن «قبر» التاتنيك مكانا تذكاريا دوليا، كما طلب من محكمة العدل الدولية ان تصدر اعلانا مماثلا.

وهكذا ينشط العلماء المتخصصون في اوربا وامريكا لانقاذ «التاتنيك» وانتشالها من قعر المحيط. وقد تكون الأساليب التي يستخدمونها الآن غير كافية أو مجدية، ولكن التقدم العلمي والتقني سيؤدي ولا شك الى ابتكار معدات اكثر كفاءة وفاعلية من تلك التي تستخدم في الوقت الحاضر □




بقلم: د. مأمون فريز جرار / الرياض

**«الأدب الاسلامي»** مصطلح نقدي كثر الحديث عنه في العقد الأخير، وصدرت عدة دراسات وكتبت عدة مقالات تتحدث عنه وتحاول تحديد مفهومه. واذا كان لهذا التيار من الأدب انصاره والداعون اليه، فان من المنطقي ان يكون في الطرف الآخر معارضون له، معارضة «فنية نقدية» عند البعض ومعارضة «مبدئية فكرية» عند البعض الآخر. ولست بصدد استعراض مواقف المعارضين، وإنما هدفي من هذه الدراسة التعريف بالأدب الاسلامي ليكون القارىء على بيِّنة من أمره، موافقة أو معارضة.

## مفهوم الأدب الاسلامي

اذا ذكر مصطلح «الأدب الاسلامي» انصرف ذهن كثير من الدارسين الى أدب عصر النبوة والخلفاء الراشدين، ويضاف اليه الجزء الأكبر من عصر بني أمية. وهذا يعني أن الأدب الاسلامي لدى أولئك الدارسين هو أدب فترة لا أدب فكرة!

والمفهوم الجديد الذي يعرضه عدد من الباحثين لهذا المصطلح ينطلق من اعتبار الأدب الاسلامي معبرا عن روح الاسلام وتصوره للحياة ودور الانسان فيها. ونجد في هذا المجال عدة تعريفات اختلفت صياغتها اللغوية ولكن مضمونها واحد.

يعرِّف محمد قطب الأدب الاسلامي ــ والأدب فرع من فروعه ــ بأنه «التعبير الجميل عن الكون والانسان والحياة من خلال التصور الاسلامي للكون والانسان والحياة»(١). ويعرّفه الدكتور عماد الدين خليل بأنه «تعبير جمالي مؤثر بالكلمة عن التصور الاسلامي للوجود»(٢). ويجمع الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا بين التعريفين، فيعرفه بأنه «التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والانسان على وجدان الأديب تعبيرا ينبع من التصور الاسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته»(٣).

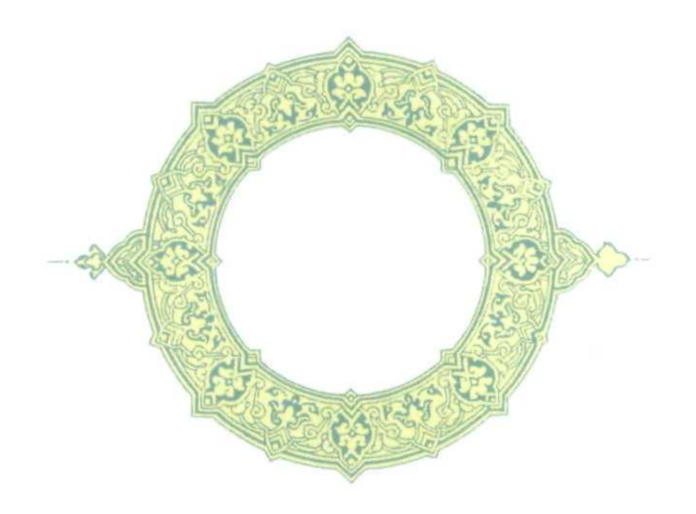
وهذه التعريفات تتفق على أنه لا بد في الأدب الاسلامي من التعبير الجميل او التعبير الفني، وهذا شرط لاعتبار الكلام أدبا، وانه لا بد ان ينطلق من التصور الاسلامي للكون والحياة والانسان، وهذا شرط لاعتبار الأدب اسلاميا.

## شبهات وردود

تنطلق الدعوة الى أدب اسلامي من التصور الاسلامي لوظيفة الأدب التي تبدو واضحة في تجربة الرسول، ﷺ، مع الشعر. يقول الدكتور بدوي طبانة «والى جانب الحجة والسيف كان الشعر سلاحا من أمضى الأسلحة في النيل من الأعداء المعاندين، وقد أخذ يشق لنفسه طريقا جديدا، فيصبح لسان الدعوة الجديدة، يشيد بانتصاراتها ويشيع مبادئها في تطهير العقيدة، وفي إصلاح المجتمع، والعمل للدنيا والآخرة»(٤).

وقد وجدنا شعراء الرسول، ﷺ، حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، يسخِّرون فنهم

(١) «منهج الفن الاسلامي»، محمد قطب، ص/٦.
(٢) «مجلة الفيصل»، عدد ٧٨، سنة ١٤٠٣هـ، ص/٤٠.
(٣) «نحو منهج اسلامي في الأدب والنقد»، د. عبدالرحمن رأفت الباشا، ص/٩٢.
(٤) «دراسات في نقد الأدب العربي» د. بدوي طبانة، ص/٦٣.



الشعري في خدمة الدعوة الاسلامية. وقد بين لهم الرسول، ﷺ، «**ان المؤمن يُجاهد بسيفه ولسانه**»[٥]. بل وجَّه اليهم الأمر فقال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[٦]. وكان للنبي، ﷺ، مواقف من الشعر والشعراء، نهيا عن بعض أنواع الشعر، وذماً لبعض الشعراء، كما كان في الوقت نفسه يستمع الى الشعر، ويحض الشعراء على قوله[٧].

وقد رأينا لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقفات مع الشعراء منطلقة من التصور الاسلامي، ومن ذلك تقديمه لزهير بن أبي سلمى على غيره من الشعراء لاسباب منها انه «لا يمدح الرجل الا بما فيه»[٨].

واذا كان الشعر الذي التزم بقواعد الاسلام قد عرف من قبل بالشعر الاسلامي، فان كل فن من فنون الأدب ينطلق من التصور الاسلامي ويلتزم بما التزم به شعراء الاسلام الأولون يعد أدباً إسلاميا. والذين يدعون الى أدب اسلامي إنما يسعون الى أن يكون الأدب وسيلة من وسائل البناء، وسبيلا من سبل الدعوة الى الالتزام بالاسلام نفسه، ومقاومة التحلل من قيود الدين. يقول الدكتور بدوي طبانة: «ولقد ظلت الفكرة الدينية في النظرة الى الأدب سائدة ما دامت للدين المنزلة في القلوب، وما دام سلطانه قويا على العقول، فاذا كانت فترات للتحلل من قيود الدين والانحراف عن اهدافه، ضعف هذا المقياس وتلاشى بسبب ضعف الوازع الديني، او الوازع الخلقي»[٩].

(٥) «الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد»، ٢٧٥/١٩.
(٦) «صحيح الجامع الصغير» ٣:٧٩.
(٧) انظر: «دراسات في نقد الأدب العربي» د. بدوي طبانة، ص/٦٧ — ٧٢.
(٨) «طبقات فحول الشعراء»، طبع محمود شاكر، ص/٥٢.
(٩) «دراسات في نقد الأدب العربي» د. بدوي طبانة، ص/٧٢.

ولئن لم تظهر الدعوة الى الأدب الاسلامي من قبل، ولم يُبذل الجهد لرسم خطوط مذهبه، فذلك لأن المذهبية النقدية لم تظهر في تاريخنا النقدي إلا بعد اتصالنا بالحضارة الغربية في العصر الحديث، واطلاعنا على ما لدى الغربيين من مذاهب أدبية، وتبني كثير من الأدباء المسلمين لها. والذي ينبغي التنبه اليه هو ان أكثر هذه المذاهب يستند الى فلسفات وينبع من تصورات، لا للفن وطبيعته فحسب، بل للكون والانسان والحياة[١٠].

وان من الجور ان نربط بين الاتجاهات النقدية في تاريخنا وبين المذاهب الأدبية الحديثة، ذلك لأننا نحمل النصوص النقدية أكثر مما تحتمل عندما نربطها بمذهب حديث، أو بأفكار سائدة في زماننا. ومن هذا اللون ربط الدكتور محمود السمرة بين مفهوم القاضي الجرجاني للعلاقة بين الدين والشعر، وفكرة فصل الدين عن الحياة، فهو يقول: «وليس من العسير علينا ان ندرك السبب الذي جعل الجرجاني يجهر بهذا الرأي دون حرج، فالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان الأدب مرآة لها في هذا العصر، تؤكد ايمان القوم بالفصل بين الأدب والدين»[١١]. ثم يقول «ولا يخامرنا شك في أن القوم لم يُدهشوا لهذا الرأي يصدر عن قاضي القضاة، لأنهم كانوا يمارسونه في حياتهم الأدبية»[١٢].

علينا أن نفهم النصوص النقدية التي نطق بها الأقدمون فهما عادلا لئلا نجور على اصحابها أو على الحقيقة العلمية. اننا نجد أبا بكر الصولي يقول عن أبي تمام: «وقد ادعى قوم عليه الكفر، بل حققوه، وجعلوا ذلك سببا للطعن على

(١٠) انظر: «النقد الأدبي الحديث» محمد غنيمي هلال، ص/٢٧٧ وما بعدها.
(١١) «الأديب الناقد»، د. محمود السمرة، ص/ ١٦٠ — ١٦١.
(١٢) المصدر نفسه، ص/١٦٢ — ١٦٣.

شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر، ولا ايمانا يزيد فيه»[١٣].

ولكننا نفهم من قول الصولي هذا أنه يريد ان يقرر قواعد عادلة في النظر الى الشعر تنصف الشاعر وان تكن عقيدته غير صحيحة، فالذين ذموا أبا تمام من جهة عقيدته جاروا في الحكم عليه فطعنوا في شعره كله، وقلبوا ما كان فيه من الحسن، ولو انصفوا لميزوا بين الشاعر وشعره، فما وجدوا فيه حَسَنا حسّنوه، وما وجدوا فيه من سوء بيّنوه. والصولي نفسه لا يقر التطاول على الاسلام فهو يقول: «على انه ما ينبغي لجاد أو مازح ان يلفظ بلسانه ولا يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز وجل، ويثاب من مثله»[١٤].

وقد كان القاضي الجرجاني في موقف الدفاع عن المتنبي عندما قال: «والعجب ممن ينتقص أبا الطيب، ويغضّ من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة، وفساد المذهب في الديانة»[١٥].. «فلو كانت الديانة عارا على الشعر لوجب أن يُمحى اسم ابي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره اذا عُدّت الطبقات، ولكان اولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب ان يكون كعب بن زهير وابن الزبعري واضرابهما ممن تناول رسول الله، ﷺ، وعاب من اصحابه، بكماً خُرساً، وبِكاء مفحمين، ولكنّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر»[١٦].

فموقف الجرجاني شبيه بموقف الصولي، كلاهما يدافع عن شاعر أمام خصوم جاروا عليه. فالذين انتقصوا من المتنبي وغضّوا من شعره، انما استندوا الى أبيات معدودة وجدوا فيها ما يدل على ضعف عقيدته، فهوّنوا من شعره كله، ولم ير «القاضي» الجرجاني عدلا في هذا التعميم، ذلك لأن الذين انتقصوا المتنبي لهذه الأبيات قد غضّوا الطرف عن شعراء آخرين ورد في شعرهم ما يشبهها من الدلالة على ضعف العقيدة. ويعقب على ذلك بقوله: «ولسنا نذهب فيما نذكره مذهب الاحتجاج والتحسين، ولا نقصد به قصد العذر والتسويغ، وإنما نقول: عيب مشترك، وذنب مقتسم، فان احتمل فللكل، وان رد فعلى الجميع»[١٧].

وهذا القول يدل على ان ما يستساغ من الشعر يُقبل، وما كان فيه من عيب يُردّ، ولا تُلتمس له المعاذير، ولكن تعميم الحكم وشمول الشعر كله بالذم ظلمٌ غير مقبول. ودليل القاضي الجرجاني على هذا ان الناس يَرْوون شعر أهل الجاهلية وهم كفار، ولم يَحُل كفرُهم دون استحسان شعرهم الذي لا يتضمن كله كفرا. وكذلك الحال مع بعض الشعراء الذين وقفوا أول الأمر في صف المعاندين لدين الله، مثل كعب بن زهير، وابن الزبعري، ومثل ابي نواس الذي امتلأ شعره بذكر الخمر، وورد فيه بعض ما يدل على فساد عقيدته.

إن التأمل في موقف الجرجاني يدلنا على «انه يفرق بين القدرة على ابداع الشعر ـــ بل والتفوق فيه ـــ وعقيدة الشاعر، وانه يقصد الى ان الحكم على براعة الشاعر وموهبته يتجرد عن كل القيم غير الفنية، ولا يأخذ في الاعتبار ملته ومذهبه، وهذه حقيقة لا جدل فيها، فهناك شعراء مبدعون في جميع الديانات والمذاهب، وهناك شعراء مقصّرون او مبتدئون ايضا، وليس ثمة ارتباط بين معتَقَد الشاعر وموهبته، والموهبة ملَكة موزعة في أبناء آدم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ومعتقداتهم»[١٨].

ويدلنا التأمل كذلك على ان «الجرجاني ميَّز بين القدرة على قول الشعر واتقانه والتقدم فيه وعقيدة الشاعر، وأنه دافع عن المتنبي ليس غير، ولم يقصد تسويغ الانحراف، ومصادمة العقيدة، ولا قبول الشعر الذي يفعل ذلك»[١٩].

وهكذا يمكننا ان نفهم ما ورد في تراثنا النقدي من الأقوال التي قد يبدو ظاهرها مناقضا للدعوة الى أدب اسلامي، فهما عادة يتفق مع سياقها، وينسجم مع المواقف التي قيلت فيها.

ان الدعوة الى الأدب الاسلامي لا تعني تحكيم النظرة الدينية وحدها، بل تعني اتخاذ مقياسين للأدب، أولهما فكري ينظر في المضمون وما فيه من موافقة أو مخالفة لأسس التصور الاسلامي، والآخر فني يراعي قواعد الشكل الفني لكل نوع من الأنواع الأدبية. ولعل هذين المقياسين يُستَمدان من موقف الرسول، ﷺ، مع شعرائه.

فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: «ان رسول الله، ﷺ، قال: اهجوا قريشا فانه أشد عليها من رشق بالنبل، فأرسل الى ابن رواحة فقال: اهجهم. فهجاهم فلم يُرضِ. فأرسل الى كعب بن مالك، ثم أرسل الى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الأسد الضارب بذنبه! ثم اولع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينّهم بلساني فريَ الأديم. فقال رسول الله، ﷺ: لا تعجل فان أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وان لي فيهم نسبا، حتى يلخّص لك نسبي. فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله، ﷺ، يقول: ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله. وقالت: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى»[٢٠] □

(١٣) «أخبار أبي تمام»، ص/١٧٢.
(١٤) المصدر نفسه، ص/١٧٣.
(١٥) «الوساطة بين المتنبي وخصومه»، ص/٦٣.
(١٦) المصدر نفسه، ص/٦٤.
(١٧) المصدر السابق نفسه ، ص/٤٢٨.
(١٨) «مقدمة لنظرية الأدب الاسلامي»، د. عبدالباسط بدر، ص/١٤٠.
(١٩) المصدر السابق نفسه ، ص/١٤١.
(٢٠) صحيح مسلم، جـ د/ ص/١٩٣٥ ـــ ١٩٣٦، طبع/دار إحياء التراث العربي.



للشاعر: عبدالرحمن صالح العشماوي / الرياض

أيُها الليل قد عرفتَ شجوني     فلمـاذا تركتنـي في أنينـي؟
ولماذا غدوتَ بحرا عميقـــا     من ظلامٍ يتيه فيه سفينـي؟
انتَ قاربتَ بين قلبي وبين الشوق، حتى استلذّ طعم حنينـي
انت يا ليل دفترٌ من رموزٍ     أعجزتْ كلَّ تائـهٍ مفتـونِ
ادرك العاقل المفكّر معنـا     هـا، وليس اليقينُ مثل الظنونِ
أيّها الليل مـا قـرأتك إلاّ     وزمـام الأحلام ملك يمينـي
اكتم الجرح في فؤادي واشدو     وأغني والدمع مـلء جفـوني
أيّها الليل.. هل أبثك ما بي     او ما تقرأ الرّضا في جبيني؟
دعْك من حسرتي فحبل جراحي     ــ لو درى الحاقدون ــ غير متين
أنا يـا ليـل استعين بربـي     في دروبي، والله خير معـين
كلمـا ارجفتْ صروف زماني     في فؤادي، امسكْتُ حبل يقيني
أيها الليل كم أرى فيك من ذكـرى، وكم فيك من رؤى تحتويني
ما اطلّ الهلال إلاّ رآنـي     مشرئباً اليـه جـمّ الحنين
او تراءت ليَ الكـواكب إلاّ     ادركتْ لهفتي وعُمْق شجونـي
كلُّ قلبٍ له نصيبٌ مـن الحـز     نِ، فطوبـى للصابـر الميمونِ
لو أطعنا جراحَنا ما انتهينـا     من عـذابٍ وحرقـةٍ وانـينِ



* «أبو عثمان الجزار» الملقب بـ «اليابسة».
* الطبيب «محمد بن سعيد».
* «عبدالرحمن بن إسحق بن هيثم».
* «أبو عبدالله الصقلي»، الذي كان يتكلم اليونانية. ويعرف أشخاص الأدوية.
* «حسداي بن شبروط الاسرائيلي»، الذي كان — كما يقول ابن جلجل — «أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب الى الملك عبدالرحمن الناصر، وكان نقولا الراهب عنده أحظى الناس وأخصهم به»[١٤].

والذي نهض به هؤلاء النفر من أطباء قرطبة انهم تدارسوا كتاب ديسقوريدس مع الترجمان القسطنطيني، واهتموا بما ورد فيه من النباتات «المحلية» المعروفة في الاندلس، مطرحين جانبا ما افتقدوه منها في بلادهم، ولكنهم — بعد هذا وذاك — اقبلوا على النباتات المنزرعة عندهم مما لم يرد له ذكر في الكتاب.. وهم، في ذلك كله، لم يعمدوا الى اعادة نقل كتاب ديسقوريدس الى العربية، وإنما تجاوزوا هذه المهمة اليسيرة الى ما هو أنفع وأشمل: لقد أخذوا يتسابقون الى تأليف الكتب، الاندلسية، في الأعشاب، تلك التي تعرَّفوا خواصَّها ومنافعها مما يتوافر في البلاد او يمكنهم استزراعه، فكانوا، في صنيعهم هذا، مضيفين الى ما تلقوا من علم، غير متوقفين عند ما وصل اليهم من معارف الأوائل.

## ٤ — أبو المطرِّف بن وافد:

على أن العناية بكتاب ديسقوريدس، تصحيحا واضافة، ما كان لها ان تنتهي بانتهاء مهمة العلماء الذين صحبوا الراهب نقولا ولا بانقضاء آجالهم في هذه الحياة الدنيا؛ لأن استقصاء ما تنبته سهول الأندلس وجبالها من النباتات، ما كان له ان ينتهي ايضا! وقد ظل هذا الاستقصاء والتتبع، وبالتالي التصحيح والاضافة وتصنيف الجديد من الكتب في ذلك، جارياً عبر الأجيال المتعاقبة من الأطباء والصيادلة والنباتيين الاندلسيين.

(١٤) «طبقات الأطباء»: ٤٩٣ و ٩٤.

ومن هؤلاء المتتبعين كان الوزير في بلاط طليطلة ابو المطرِّف، عبدالرحمن بن محمد بن وافد (ت ٤٦٧هـ)، الذي — كما قال القاضي صاعد الاندلسي — «تمهّر في علوم الأدوية المفردة، حتى ضبط منها ما لم يضبطه احد في عصره، وألَّف فيها كتابا جليلا لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفين في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وهو مشتمل على قريب من خمسمائة ورقة. واخبرني — يتابع صاعد قوله — انه عانى جمعه، وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية.. (نحوا) من عشرين سنة، حتى كمل موافقا لغرضه مطابقا لبغيته»[١٥].

وكان لابن وافد في الطب منزَع لطيف ومذهب نبيل، وذلك أنه كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية او ما كان قريبا منها؛ فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فانه لا يرى التداوي بمركَّبها ما وصل الى التداوي بمفردها؛ فان اضطر الى المركب لم يكثر التركيب بل اقتصر على أقل ما يمكن منه.

وكان الطبيب الوزير ابن وافد يتسقّط، وهو في بلاط طليطلة، أخبار الأطباء وما يستجد عندهم في مضمار التطبيب بالحشائش والأعشاب والثمار... ومن ذلك ما رواه الطبيب الاندلسي الشهير عبدالملك بن زُهر في كتابه «التيسير في المداواة والتدبير» من أن جَدَّه، سَمِيَّه «عبدالملك بن محمد بن زهر» «استصعب عليه علاج حمَّى رِبْع[١٦]، فأمر العليل ان يأكل كل يوم ثلاث حبات من الخوخ النَّضِج[١٧] اياما نحو العشرة، ثم سقاه، رحمه الله، مسهِّلا، فبرىء من مرضه برءاً كليا».

يقول صاحب «التيسير»: «وعجب أطباء وقته من ذلك حينئذ. ووقعت في ذلك رسائل كثيرة بينه وبين الشيخ الوزير أبي المطرف بن وافد، رحمه الله. فان أبا المطرف كتب اليه يتعرف حقيقة ذلك وما دعاه الى فعله، فكتب اليه بما فعل وبما ظهر له وبمقصده في ذلك، فأعظم الأمر استحسانا. والرسائل بين أيدي الناس موجودة»[١٨] □

(١٥) «طبقات الأمم»: ١٢٨، مطبعة السعادة بمصر (د. ت).
(١٦) في «قاموس الأطباء» للقوصوني ان الرِّبع من الحمَّى: «أن تأخذ يوما، وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع»، ١:٢٥٥.
(١٧) وهو ما يطلق عليه، في بلاد الشام: الدراقن.
(١٨) «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»: ٤١٥ و١٦. وانظر، ايضا، مقالتنا: «عبدالملك بن محمد بن زهر الأيادي، المعروف بالجد»، مجلة «القافلة»، العدد المزدوج الخامس والسادس، جمادى الاولى والثانية ١٤٠٦هـ (يناير — مارس ١٩٨٦م).

# المَدْرَسَةُ الأنْدَلُسِيَّة

## في علم النَّبَات والأعشَاب

بقلم: الأستاذ فاضل السباعي/سورية



عَنِي الاندلسيون، في توالي عصورهم، بالتداوي بالأعشاب والنباتات. فقد توجهت فئة منهم غير قليلة، من الأطباء والصيادلة والعشّابين، الى النباتات والحشائش والأعشاب، يبحثون عنها في السهل والجبل، وفي سائر أنحاء الاندلس، يتعرفون خواصها ومنافعها، ويكتبون في صفتها وآثارها في الأبدان؛ ومنهم من ألّف في ذلك المصنفات الكبار.. حتى لقد ازدهر علم النبات ازدهارا عظيما على أيدي علماء منهم، تعاصروا او تعاقبوا في أجيال؛ ومنهم من لم يقف عند حد البحث والتنقير عن النباتات في الوطن الأم، الأندلس، بل اجتاز البحر الى العدوة المغربية، ثم اتجه شرقا نحو المغرب الأوسط، وأفريقية، وبرقة[1]، أو الى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم[2]، متابعا رحلته العلمية الى مصر، والديار المقدسة، وبلاد الشام جميعا.

ويحسن بنا ان نتوقف قليلا عند تلك «الهدية» الثمينة التي تلقاها في قرطبة، سنة ٣٣٧هـ، الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر، من ملك القسطنطينية، والتي كانت كتاب ديسقوريدس في الحشائش والأدوية المفردة. وقد كان فرح أطباء الاندلس وعلمائها بالهدية عظيما، إلا أنه فرح بدأ مشوبا بغصة، ذلك ان هذا الكتاب، الذي تشوقوا الاطلاع عليه، كان باللغة الاغريقية التي لا يتقنها احد منهم! ثم سرعان ما وصل اليهم، موفدا من القسطنطينية أيضا، ترجمان، هو الراهب نقولا، الذي كان عارفا بالاغريقية فضلا عن اللاتينية التي كان بينهم من يعرفها، وحصلت الاستفادة من الكتاب ومما هو أبعد من المعلومات التي تضمنها، على نحو ما سنبينه أدناه.

ولا يغيب عن البال، ونحن نَهمّ باستعراض اعلام الأندلس في علم النبات والأعشاب والعقاقير، ان هذا العلم الجليل قد أسهمت في تطوره، في ظل الحضارة العربية الاسلامية، عبقريات شتى كان منها أولئك الأطباء الذين كانت ممارستهم للطب تحتم عليهم معرفة منافع الأعشاب والعقاقير وآثارها في مرضاهم بصفتها من «الأدوية المفردة».. وبذلك فقد أسهم في تطوير علم الأدوية المفردة، أي العقاقير، وبمستويات متفاوتة، أطباء كثر لعل أشهرهم: «علي بن ربن الطبري» (ت ــ ٢٤٧هـ) في كتابه «فردوس الحكمة»؛ و «أبو بكر

(١) هي ما نطلق عليه اليوم: الجزائر، وتونس، وليبيا.
(٢) أي: اليونان وما يليها.

الرازي» (ت ــ ٣١٣هـ) في كتابه «الحاوي»؛ و «ابن الجزار القيرواني» (ت ــ ٣٦٠هـ) في كتابه «زاد المسافر وقوت الحاضر»؛ و «علي بن العباس» (ت ــ ٤٠٠هـ) في كتابه «كامل الصناعة الطبية»؛ و «أبو القاسم الزهراوي» الاندلسي (ت ــ ٤٢٧ هـ) في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»؛ و «ابو علي بن سينا» (ت ــ ٤٢٨هـ) في كتابه «القانون في الطب»؛ و «عبدالملك بن زهر» الاندلسي (ت ــ ٥٥٧هـ) في كتابه «التيسير في المداواة والتدبير».. وغيرهم كثير.

وفي تعريفنا بأشهر النباتيين والعشَّابين الذين ظهروا في الأندلس، وتألقوا في زمنها الاسلامي، نحب ان نشير الى مسألتين:

الأولى: ان المصادر التاريخية لم تسعفنا دائما في التعريف بكل من ظهر في الاندلس من العلماء؛ فغير قليل من مصنفات الطب والنبات قد تبدد بفعل الكوارث والزمن، وكذلك كتب «الطبقات» التي تترجم لعلماء الاندلس وأدبائها وشعرائها، فغابت عنا معلومات عن بعضهم، وامَّحت ــ أو كادت ــ أسماء من الوجود، لولا اشارات عابرة هنا وهناك.

المسألة الثانية: أنا جعلنا، في الصفحات التالية، بين علماء النبات الأندلسيين، ثلاثة ليسوا منهم، لأنا رأينا البحث، من الناحية العلمية والتراثية، يسوِّغ ذلك. أحد الثلاثة ــ وهم مشارقة ــ هو «الدينوري»، لعنايته الخاصة بتصنيف اسماء النبات في معجم؛ وثانيهم هو آخر العقد الذي انتظم النباتيين العرب، وهو «داود الانطاكي»؛ وثالثهم هو «رشيد الدين الصُّوري» الذي عاصر، وهو في بلاد الشام، وربما التقى، باثنين من أكابر علماء النبات الأندلسيين في قدومهما الى المشرق: «أبي العباس النباتي» (الاشبيلي) و «ابن البيطار» (المالَقي).

## ١ ــ أبو حنيفة الدَّيْنَوَري:

أبرز من عني بالنبات، من المصنفين والمؤلفين، في عصره. أبو حنيفة، أحمد بن داود بن وَنَند، من أهل «دَيْنَوَر» في اقليم همدان. جاب معظم البلاد العربية. وكان ــ كما تحدثت عنه المصادر التاريخية ــ «مفتناً» في علوم كثيرة، منها النحو واللغة والحساب وعلوم الهند، وثقة فيما يرويه، معروفا بالصدق...»[٣].

على أن عناية الدَّينوَري بالنباتات كانت من الوجهة اللغوية على وجه الخصوص. ذلك ان حركة التأليف والتدوين، التي بدأها أجدادنا في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي)، كانت قد شملت تصنيف الكتب والمعجمات بقصد شرح معاني الألفاظ وبيان الكلمات الدخيلة على لغة

(٣) «الفهرس» لابن النديم، ص/٧٨. ورد في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي قول لأبي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)، أن أبا حنيفة كان «من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، له في كل فن ساق وقدم..»، ٣: ٢٧.



العرب، وكان من ذلك شرح أسماء النباتات، وقد ورد شرحها بادىء الأمر في المعجمات اللغوية، ثم ما لبثوا ان رأوا ان يخصوا النباتات بمؤلفات مستقلة. واذا كان «الفراهيدي» (ت ــ ١٨١هـ) قد ضمَّن معجمه المسمى بـ «العين» اسماء عدد من الأعشاب والأشجار، فان «الاصمعي» بعده (ت ــ ٢١٦هـ) قد أفرد أول كتاب خاص بأسماء النباتات وأوصافها سماه «النبات والشجر» وذكر فيه مئتين وخمسين نباتا.

ثم توالت المؤلفات في النبات خلال القرن الثالث للهجرة، فكان أبرز من صنف فيه أبو حنيفة الدَّينوَري (ت ــ ٢٨٢هـ)، الذي وضع كتابا جمع فيه كل ما ورد في لغة العرب من أسماء النباتات وصفاتها، سماه «كتاب النبات»، وجاء في ستة مجلدات كبار، أصبح فيما بعد المرجع لجميع من ألف في هذا العلم.. ويقول الباحث في تاريخ الطب الدكتور أحمد شوكت الشطي إنه غدت «لهذا الكتاب أهمية عظمى لدى علماء الغرب، الذين اعتمدوا عليه في مؤلفاتهم حينا طويلا من الزمان، واعتبروه دائرة معارف نباتية عربية»[٤].

ومن المؤسف ان هذه الموسوعة لما تزل مفقودة، ولم يعثر منها الا على مجلد ونصف المجلد[٥].

## ٢ ــ «ابن جُلْجُل»:

في قرطبة، في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر (حكمه من ٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ)، ولد أبو داود، سليمان بن حسان، المعروف بـ «ابن جلجل». وقد كان ابن ثماني سنوات، في عام ٣٤٠هـ، حين وصل الى حاضرة الاندلس الراهب نقولا مبعوثا من القسطنطينية. ويقول ابن عبدالملك انه «عُني بالطب أتم عناية وهو ابن أربع عشرة سنة، وأفتى فيه ابن اربع وعشرين..»[٦]. ويصفه ابن أبي أصيبعة بأنه «كان

(٤) «تاريخ الطب وآدابه وعلومه»: ٣٩٠، مطبعة جامعة حلب ١٩٨٠.
(٥) يقول الزركلي ان ما طبع من مجلداته هو الثالث ونصف الخامس، وقد طبعهما الدكتور محمد حميد الله، «الاعلام» ١: ١٢٣.
(٦) «الذيل والتكملة..» ٤: ٦٢.

طبيبا فاضلا، خبيرا بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة الطب»(٧) (توفى بعد سنة ٣٧٧هـ).

ولقد بدأ طبيبنا أبو داود معنيا عناية فائقة بالأدوية المفردة، التي عمادها الأعشاب والنباتات، ويسميها هو «هيولي الطب».. يقول عن نفسه: «وكان لي، في معرفة تصحيح هيولي الطب الذي هو أصل الأدوية المركبة، حرص شديد وبحث عظيم، حتى وهبني الله من ذلك بفضله بقدر ما اطّلع عليه من نيتي في إحياء ما خفت يدرس وتذهب منفعته لأبدان الناس...»(٨)؛ وذلك ما حمله على ان يتوفر على التأليف في هذا المضمار، فان له في ذلك:

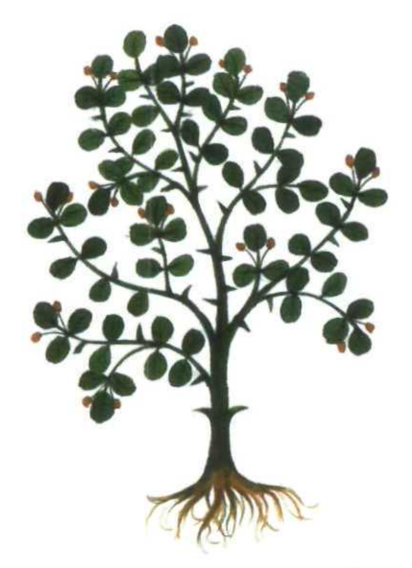
* كتاب «تفسير الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس»، ألفه بقرطبة سنة ٣٧٢هـ.
* مقالة في «الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس» في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به، وما لا يستعمل قليلا يغفل ذكره.. ويقول: «ان ديسقوريدس أغفل ذلك ولم يذكره، إما لأنه لم يره ولم يشاهده عيانا، وإما لأن ذلك كان غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه».
* فضلا عن كتابه الشهير في تاريخ الطب: «طبقات الأطباء والحكماء»، الذي فرغ من تأليفه في صدر سنة ٣٧٧هـ(٩).

### ٣ ــ سبعة من أطباء قرطبة:

يقول ابن جلجل، عن أطباء قرطبة وعشّابيها الذين استقبلوا الراهب نقولا وتعاونوا معه لفهم كتاب ديسقوريدس وتفسير نباتاته: «وكان هؤلاء النفر كلهم في زمان واحد مع نقولا الراهب، وأدركته(١٠) وأدركت نقولا الراهب في أيام المستنصر وصحبتهم...»(١١).

ويحدّثنا، عن معاصريه هؤلاء، حديثا مستطابا بدا أنه هو المصدر الوحيد الذي بقي لنا من خير هؤلاء الأطباء وما نهضوا به من عمل علمي كان له أبعد الأثر في حركة التطبيب بالأعشاب والنباتات في الأندلس. قال ان كتاب ديسقوريدس عن الحشائش والأدوية المفردة(١٢) كان قد تم نقله الى العربية في مدينة السلام زمن الخليفة العباسي «المتوكل

(٧) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: ٤٩٣.
(٨) «طبقات الأطباء*»: ٤٩٤ و٩٥.
(٩) صدر بالقاهرة سنة ١٩٥٥، بتحقيق فؤاد سيد.
(١٠) لعلها: وأدركتهم!
(١١) «طبقات الأطباء»: ٤٩٤. وكان حكم المستنصر بالله (الحكم الثاني) ما بين ٣٥٠ و٣٦٦هـ.
(١٢) وهو الذي يحمل أصله اسم Materia Medica أي: المادة الطبية.



على الله» (حكمه ٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ)، وكان مَن قام بنقله من اللسان اليوناني هو «اصطفن بن بسيل» الترجمان، وقد تصفحه «حنين ابن اسحق» فصحح الترجمة وأجازها.. ويمضي ابن جلجل موضحا: «فما عَلِمَ اصطفن، من تلك الاسماء اليونانية في وقته، له اسماً في اللسان العربي، فسَّره بالعربية: وما لم يعلم في اللسان العربي اسماً، تركه في الكتاب على اسمه اليوناني، اتكالا منه على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي».

وقد وصل الكتاب بهذه الترجمة القاصرة، الى الاندلس، فانتفع الناس بما عرفوا له اسما بالعربية من النباتات.. الى ان ورد الى الاندلس، سنة ٣٣٧هـ، من «ارمانيوس» ملك القسطنطينية(١٣)، الكتاب هدية، وهو «مصّور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي»، وقد كتب ملك القسطنطينية الى الخليفة الناصر: «ان كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلاّ برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني، ويعرف اشخاص تلك الأدوية؛ فان كان في بلدك من يحسن ذلك فزت، أيها الملك، بفائدة الكتاب...». ولما لم يكن في قرطبة، عهدئذ، من يتقن الاغريقية، فقد كتب الناصر الى ملك القسطنطينية ان يبعث اليه برجل يتكلم الاغريقي واللاتيني. فأوفد الملك الراهب نقولا، والذي وصل الى قرطبة سنة ٣٤٠هـ.

وكان، يومئذ، بقرطبة من الأطباء «قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جُهل من اسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس»، وهم:

* «محمد» المعروف بـ «الشجّار».
* رجل يعرف بـ «البسباسي».

(١٣) الصواب: «قسطنطين السابع»، الملقب بـ «الأرجواني» توفي ٣٤٨هـ ٩٥٩م)، وليس «ارمانيوس» (رومانوس الثاني) الذي خلف الارجواني. أنظر في ذلك: الدكتور عبدالله محمد العمراني: «الطب الاندلسي نظرياته وتطبيقاته»، نشرة «الطب الاسلامي»، العدد الثاني، ٣٦٧:٣، الكويت، جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ، مارس ١٩٨٢.

# عندما تخفق الخلايا القاتلة!

بقلم: الدكتور عبدالرحمن عبداللطيف النمر / الرياض

**مايزال** لغز السرطان حقلا خصبا للأبحاث والتجارب الطبية، والمعملية والميدانية. وبينما تنتهي معظم الابحاث الى فشل ذريع، فان بعضها يأتي بجديد يفيد في حل طلاسم هذا اللغز الذي طالت حيرة الانسان امام طلاسمه.

والجديد هذه المرة يأتي من «أبحاث المناعة»، حيث أمكن اكتشاف الدور الذي تلعبه أجهزة الدفاع في جسم الانسان ضد خلايا السرطان، كما أمكن — الى حد ما — فهم الكيفية التي تخدع بها خلايا السرطان أجهزة الدفاع!

## الخلايا القاتلة

في دم الانسان ثلاثة انواع من الخلايا هي كريات الدم الحمر، والصفائح الدموية، وكريات الدم البيض. اما الخلايا الحمر فوظيفتها الرئيسية نقل الغازات. فهي تتشبع بغاز الاوكسجين في الرئتين وتحمله الى خلايا الجسم، ثم تحمل من خلايا الجسم غاز ثان اكسيد الكربون الى الرئتين حيث يتم طرده الى خارج الجسم مع هواء الزفير. وأما الصفائح الدموية فمهمتها الرئيسية هي تكوين جلطة دموية عند اصابة الانسان بجرح، بهدف وقف نزيف الدم الى خارج الجسم.

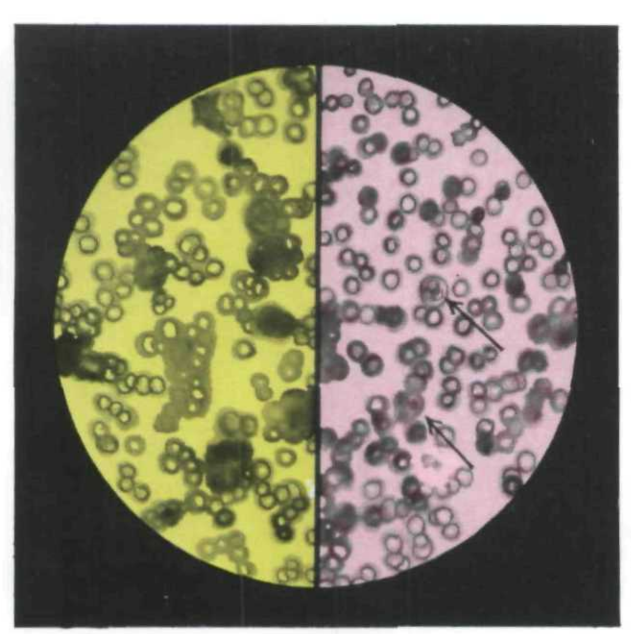
أما خلايا الدم البيض فتأخذ على عاتقها مهمة الدفاع عن الجسم ضد سائر المواد الغريبة التي تدخل اليه، سواء كانت كائنات حية دقيقة «ميكروبات» او ذرات غبار او غير ذلك. ومن بين الأنواع الكثيرة التي تتكون منها خلايا الدم البيض، يهمنا في هذا السياق نوعان: احدهما هو «الخلايا الآكلة او «الخلايا الملتهمة — Macrophages»، والآخر هو «الخلايا الليمفاوية — Lymphocytes».

كما هو واضح من التسمية، فان الخلايا الآكلة تنحصر مهمتها في التهام الخلايا الميتة، سواء تلك الخلايا الغريبة التي تقتلها اجهزة الدفاع في الجسم (وهي الفصائل المختلفة من خلايا الدم البيض) او خلايا الجسم التي تموت اثر معركة مع غاز يدخل الى الجسم او متمرد بداخله!

أما الخلايا الليمفاوية فتتكون من عدة فصائل، تكوّن في مجموعها ما يسمى «جهاز المناعة — The Immune System». ومن هذه الفصائل، واحدة اكتشف عملها مؤخرا وأُطلق عليها اسم «الخلايا القاتلة — Killer Cells» (او اختصارا بالحرف «K» من الابجدية الانجليزية). وسبب التسمية هو ان هذه الخلايا تختص بقتل خلايا السرطان، او بالدقة الخلايا التي تتكون منها الأورام حميدة كانت او خبيثة.

## جهاز المناعة

لا تعمل فصائل جهاز المناعة بمعزل عن بعضها البعض، ولا تعمل منفردة بمعزل عن باقي فصائل خلايا



صورة توضح خلايا الدم البيضاء في الشطر الايمن منها تظهر الخلية سليمة «انظر السهم»، وفي الشطر الأيسر تظهر الخلية معتلة بالمرض المنجلي وهو أحد أنواع سرطانات الدم.

الدم البيض. وانما يأتلف عمل هذه الفصائل جميعها في تناسق بديع، على الرغم من ان كل فصيلة يناط بها عمل متخصص لا تؤدي غيره. وأقرب تشبيه لذلك هو وحدات الجيش وفصائله المختلفة، حيث تؤدي كل وحدة او فصيلة عملا متخصصا، في اطار الهدف العام للجيش وهو الدفاع.

ولكي يمكن فهم عمل الخلايا القاتلة، فلا بد من إلقاء الضوء على فصائل جهاز المناعة، والأعمال المنوطة بكل فصيلة. وحيثما استلزم الأمر، نوضح علاقة جهاز المناعة بالفصائل الأخرى من خلايا الدم البيض.

أكثر فصائل جهاز المناعة عددا، فصيلة تعرف بالحرف «ت» وتسمى «الخلايا الليمفاوية ت — T Lymphocytes». وسبب التسمية ان هذه الخلايا تصل الى النضج وتنشط لأداء وظيفتها إثر مرورها في «غدة الثيموس — Thymus Gland»، وهي غدة ليمفاوية صغيرة في العنق، لم تعرف وظيفتها الى سنوات قليلة خلت! ولما كان اسم تلك الغدة يبدأ بحرف التاء في اللغة الانجليزية، فقد استعير الحرف للدلالة على الفصيلة كلها.

تقوم «الخلايا الليمفاوية ت» بعدة وظائف، تبدأ بما يمكن وصفه بأنه عملية استطلاع. ذلك ان تلك الخلايا تدور في تيار الدم العام، وتسبح في السوائل الموجودة بين خلايا الجسم، بصورة مستمرة. وهدف هذه السباحة اليومية هو الكشف عن وجود أي جسم غريب يدخل الى الجسم، مهما كان نوع ذلك الجسم او طبيعته الكيميائية او طريقة دخوله الى الجسم! وفضلا عن ذلك فان مهمة الاستطلاع التي تقوم بها خلايا هذه الفصيلة، يمكنها ان تكشف وجود أي خلايا متمردة في اي نسيج من أنسجة الجسم! والمقصود بالخلايا المتمردة تلك التي تخرج على قوانين الحياة والموت في الجسم، فتروح تنقسم بصورة مستمرة دون توقف عند الحد المعين للخلايا من جنسها. وهذه الخلايا المتمردة هي التي تكون نواة لنشأة الأورام في الجسم.

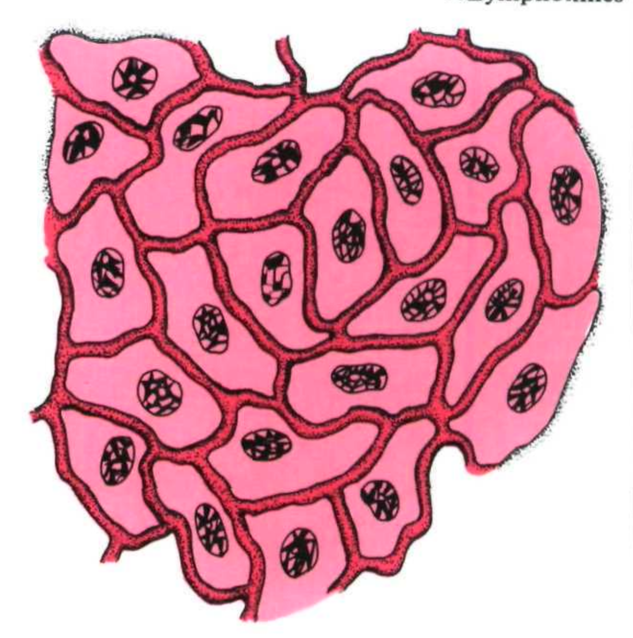
الجسم الغريب يطلق عليه اسم «الحاث — Antigen»، وسبب التسمية هو ان وجوده يحث أو يؤدي الى سلسلة من الأنشطة والأحداث، تشترك فيها عشرات الخلايا من سائر فصائل جهاز الدفاع. فبمجرد ان تكتشف «الخلايا الليمفاوية ت» وجود جسم غريب او خلية متمردة فانها تنبه الفصائل الأخرى في جهاز المناعة، كما تنبه باقي خلايا الدم البيض للعمل. ومن خلال عملية الاستنفار يجري ما يلي:

تنشط فصيلة ثانية في جهاز المناعة، تعرف باسم «الخلايا الليمفاوية ب — B Lymphocytes»، لانتاج اجسام مضادة لذلك الجسم الغريب. و «الأجسام المضادة — Antibodies» هي بروتينات، تصنعها «الخلايا الليمفاوية ب» من وحداتها الأولية (وهي الأحماض الأمينية) بسرعة هائلة. إذ تصنع الخلية الواحدة من «الخلايا الليمفاوية ب» ما يقرب من مائة جسم مضاد في الثانية الواحدة! (اذا اراد الانسان تكوين جسم مضاد واحد في المعمل من

الأحماض الأمينية فانه يحتاج الى اربع ساعات على أقل تقدير، في أكثر المعامل تقدما من الناحية التقنية!). والأجسام المضادة عالية التخصص، بمعنى انها لا يستخدم الا في القضاء على الجسم الغريب (الحاث) الذي كان سببا في انتاجها. وجدير بالذكر ان «الخلايا الليمفاوية ب» لديها قدرة طبيعية على انتاج عدد لا نهائي من أنواع الأجسام المضادة لعدد غير محدود من الأجسام الغريبة (المواد الحاثة)! بتعبير آخر، فانه من المستحيل ان يوجد جسم غريب لا تستطيع «الخلايا الليمفاوية ب» انتاج جسم مضاد له، ما دام جهاز المناعة سليما وقادرا على اداء عمله على النحو المفروض في الظروف الطبيعية.

وهناك فصيلة ثالثة في جهاز المناعة، تنشط للعمل نتيجة حالة الاستنفار التي تعلنها خلايا الاستطلاع من الفصيلة «ت». والفصيلة الثالثة هي الخلايا القاتلة. وهذه تستدعى للعمل بوجه خاص عند اكتشاف خلية متمردة في موضع ما في الجسم!.

وفي كل الأحوال، فان خلايا الفصيلة «ب» وكذلك الخلايا القاتلة، لا تستطيع تنفيذ مهماتها الدفاعية دون عون من شعبة من الخلايا الليمفاوية «ت»، تسمى «الخلايا المساعدة ت — T Helper Cells». ويعتقد ان الخلايا المساعدة تقوم بتثبيت الجسم الغريب او تهيئة الظروف المواتية بحيث يستطيع الجسم المضاد ان يقضي عليه. كما يعتقد ان الخلايا المساعدة تعاون الخلايا القاتلة، وكذا الأجسام المضادة، بانتاج واطلاق مواد كيميائية معينة، تعين في القضاء على الجسم الغريب او على الخلية المتمردة. وتعرف هذه المواد الكيميائية باسم «الوسائط الليمفاوية — Lymphokines».



الخلايا السليمة.

كذلك تؤدي عملية الاستنفار الى جذب الخلايا الآكلة الى ساحة المعركة. وتقوم الخلايا الآكلة بالتهام الخلايا الميتة أولاً بأول، فضلا عن معاونة باقي فصائل الدفاع في حصار الجسم الغريب او الخلية المتمردة الى أن يتم القضاء عليه أو عليها!

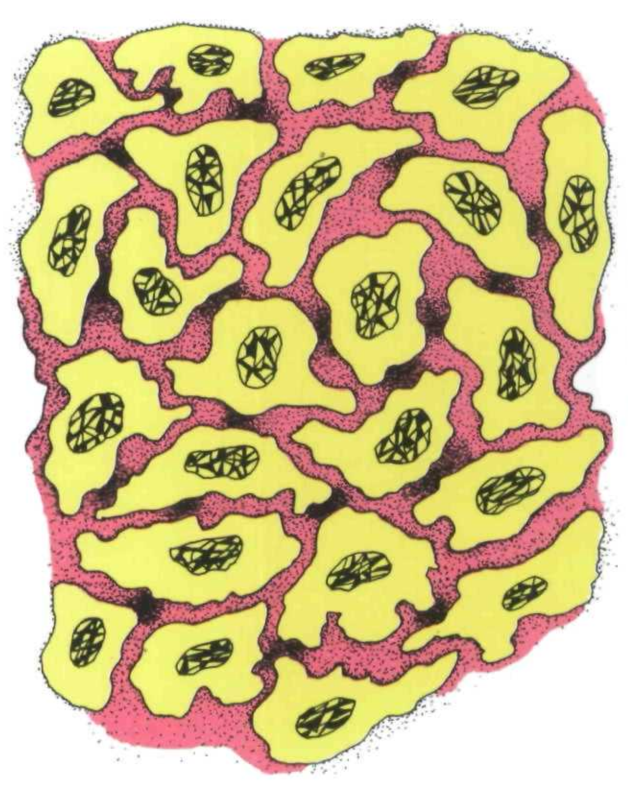
## خلايا السرطان

عندما تنقسم أي خلية حية أو تنمو، فانها تفعل ذلك وفق برنامج محدد. هذا البرنامج متضمَّن في الشفرة الوراثية التي تحملها الجينات في كل خلية. والجينات، أو بالتسمية العربية الدقيقة لها «ناقلات الصفات الوراثية»، تتكون من وحدات من الحامض النووي (نسبة الى نواة الخلية) المعروف اختصارا بحروف الانجليزية «DNA». ووفقا لترتيب وحدات الحامض النووي، تتحدد الوظيفة المنوطة بخلية معينة في الجسم.

وعلى ذلك، فان وحدات الحامض النووي (أي الحامض الموجود في نواة الخلية) والتي منها تتكون او تنبني «ناقلات الصفات الوراثية» (او الجينات) هي التي تحدد وظيفة أي خلية حية، وهي كذلك التي توجد نشاطها وتكاثرها ونموها.

لكن يحدث في بعض الأحيان ان يختل ترتيب وحدات الحامض النووي في خلية ما. وقد يكون الخلل خطيرا بحيث تضطرب جميع وظائف الحياة في الخلية، مما يؤدي الى موتها، وقد يكون الخلل يسيرا بحيث تستمر الخلية حية، لكن دون نسق معين، فلا تعود تؤدي وظيفتها المنوطة بها، ولا تنقسم ولا تنمو وفق برنامج محدد، وانما تستمر في ذلك «أي في الانقسام والنمو» دون توقف! هذا الخلل في ترتيب وحدات الحامض النووي يسمى «تحوّر — Mutation».

لماذا يحدث تحوّر في الحامض النووي في بعض الخلايا الحية؟! هذا السؤال هو محور السرطان، والاجابة عنه تعني حل لغز السرطان. بتعبير آخر، فانه من غير المعروف لماذا يحدث تحور في الحامض النووي في بعض الخلايا الحية. ولو أمكن معرفة ذلك لأمكن معرفة كيف ينشأ السرطان! لكن يعتقد ان التحور يحدث اذا تعرضت الخلايا لما يسمى «حالة تهيج مستمرة — Chronic Irritation» اي اذا تعرضت خلايا معينة لمؤثر سام معين فترة زمنية طويلة، فالاحتمال قوي هنا ان يحدث خلل في التركيب الداخلي للخلية، يعني في ترتيب وحدات الحامض النووي في النواة! وأفضل مثال على ذلك هو تعرض خلايا الجهاز التنفسي للتهيج المستمر او المزمن، بتأثير المواد السامة الموجودة في الدخان المتصاعد من جميع أنواع التبغ وأبخرة المصانع، وعوادم السيارات.



الخلايا العليلة.

وعلى أية حال، فعندما يختل سلطان الحامض النووي على خلية حية، نتيجة خلل في ترتيب وحدات الحامض، بحيث تنمو وتنقسم تلك الخلية دون ضوابط، فان هذه الخلية تسمى خلية متمردة. ومن الخلايا المتمردة تتكون الأورام في الجسم. والفارق بين خلايا الورم الحميد وخلايا الورم الخبيث هو أن خلايا النوع الأول تنمو وتنقسم ببطء شديد ثم تقف عند حد (والحد هنا غير معين، وانما المقصود بكلمة حد وجود نهاية لعملية النمو والانقسام) بينا تنمو وتنقسم خلايا الورم الخبيث بسرعة وبغير حد!

وعلى الرغم من ان خلايا الورم الحميد والورم الخبيث تنمو وتنقسم دون ضوابط، أي أنها في الأصل خلايا متمردة، فان سلوك الخلايا، وكذلك النتيجة النهائية للانقسام والنمو، مختلف! وهذا ما أثار الاعتقاد بوجود عوامل اخرى وراء نشأة السرطان، فضلا عن تحوّر الحامض النووي المذكور سلفا!

## خداع ومراوغة

يكتسي سطح الخلايا المتمردة، خصوصا تلك الخبيثة، بما يشبه الزَّغَب. وهذا الزغب يحث جهاز المناعة لانتاج أجسام مضادة لقتل تلك الخلايا. وفضلا عن ذلك، فان خلايا الاستطلاع من فصيلة «الخلايا الليمفاوية ت» تتعرف الى الخلايا المتمردة، وبالتالي ترسل اليها وحدات من الخلايا القاتلة ووحدات من الخلايا المساعدة! كما تستدعى الخلايا الآكلة الى الساحة!

وبين الخلايا القاتلة والخلية المتمردة تدور معركة حامية حتى الموت. وتبدأ المعركة باقتراب الخلية القاتلة من الخلية المتمردة والتصاقها بسطحها. وكرد فعل على وجود الخلية القاتلة، تسرع الخلية المتمردة بتكوين بثور — «Blisters»، من الزغب الذي يغطي سطحها. وبسرعة تتحول البثور الى «حويصلات — Vesicles»، وهي أكياس صغيرة تحيط بالخلية القاتلة وتمنعها من قتل الخلية المتمردة.

إن مجرى الأحداث في هذه المعركة، وكذا السرعة التي تقع بها الأحداث، عامل مهم في حسم المعركة. فاذا ما تمكنت الخلية القاتلة من اداء تأثيرها القاتل على الخلية المتمردة، قبل ان تتمكن هذه الأخيرة من عزل الخلية القاتلة واحاطتها بالحويصلات، كانت النتيجة لصالح الخلية القاتلة. واذا حدث العكس، فتمكنت الخلية المتمردة من تحويط الخلية القاتلة وعزلها قبل أن تمارس تأثيرها القاتل، كانت النتيجة موت الخلية القاتلة!

عندما تنجح الخلية القاتلة في اداء تأثيرها القاتل على خلية متمردة، فان الخلية المتمردة تتحول الى ما يشبه كرة هلامية، ويكون سطحها شبيها بالأسفنج! وسرعان ما تموت الخلية المتمردة فتلتهمها الخلايا الآكلة الموجودة في ساحة الحرب!

والواضح أن عملية قتل الخلايا المتمردة لا تحدث دفعة واحدة وإنما على مراحل. والواضح كذلك أن الخلية السرطانية لا تستسلم بسهولة، وإنما تراوغ جهاز الدفاع! وإذا كان تكوين حويصلات، أو أكياس صغيرة، من قبل الخلايا السرطانية وسيلة لحماية نفسها من تأثير الخلايا القاتلة، فان تلك الحويصلات كذلك تهدف الى خديعة جهاز المناعة، بحيث ينصرف اهتمام فصائل الدفاع عن الخلية المتمردة الى تلك الاكياس الصغيرة!

والمؤكد أن أسئلة كثيرة تبرز هنا، منها: ما هي وسيلة الخلايا القاتلة في القضاء على الخلايا المتمردة؟! هل هي باطلاق مواد كيميائية مثل تلك التي تطلقها «الخلايا المساعدة» والتي تسمى «الوسائط الليمفاوية»؟! وما هي وسائل التمويه والخداع الأخرى التي يمكن ان تلجأ اليها خلية متمردة، وتنطلي على الخلايا القاتلة؟!.

هذه الأسئلة ما تزال تبحث عن إجابات. الا ان اكتشاف دور الخلايا القاتلة يعتبر خطوة كبيرة على طريق حل لغز السرطان. وصحيح ان اكتشاف دور الخلايا القاتلة أثار عددا من اسئلة لم تحظ بعد بالاجابة عنها! لكن هذه الاسئلة ستكون ذات فائدة في توجيه الأبحاث في الحصول على الإجابة الشافية. وحسبنا ان نعلم، عند هذه المرحلة من مراحل البحث في طلسم السرطان، ان السرطان ينشأ في الجسم عندما تخفق الخلايا القاتلة□

قصة مترجمة

# الأعمى

تأليف: الكاتب الفرنسي الكبير جي دي موباسان
ترجمة: الاستاذ حسيني محمد بدوي / القاهرة



**لماذا** يهز مشاعرنا اول خيط من اشراقة الشمس، شمس الصيف التي ما أن يشيع نورها حتى نتهلل فرحا بوجودنا أحياء؟ ها هي ذي السماء زرقاء والخلاء الريفي كله اخضرار، والمساكن جميعها ناصعة البياض. ان منظر تلك الألوان الخلابة ليسحر العين ويأخذ بالألباب. كنا في أحضان عالمنا الآمن هذا نمرح ونغني في فرح وانطلاق، حتى اننا كنا نكاد من فرط سعادتنا ان نقبل الشمس، لكن ذلك الرجل الأعمى القابع دائما عند مدخل القرية، كان حبيس عالمه المظلم منذ أمد بعيد. لا شك انه كان ككل أعمى، فاقد الشعور بفرحة الحياة.

وفي الغروب، كنا نرى شقيقه الصغير او شقيقته الصغرى، تقول له:

ــ «كم كان هذا اليوم لطيفا!». فيقول الاعمى:

ــ «نعم! اعرف انه كان يوما لطيفا!». والآن، اسكتي قليلا يا لولو!».

عرفت انه كان فلاحا، ابن فلاح نورماندي. وما أن مات والداه حتى استحالت حياته جحيما لا يطاق. تكفلت به شقيقته، وكان الناس في القرية يعاملونه كمتسول وينفرون منه، ويمعنون في اذلاله عندما يقدمون له فتات الطعام، كما كانوا يعيرونه بأنه إنسان عاطل لا جدوى منه. ومع أن زوج شقيقته قد استلبه ارثه عن والديه، إلا أنه كان يلقي اليه كارها بلقمة يسد بها رمقه. وكان وجهه شاحبا شحوب الموتى. وكانت عيناه محملقتين كقرصين من الشمع

المختوم! وبالرغم من ذلك كله لم يبد المسكين أي استياء أو حنق. كان صموتا غامضا، فلا يستطيع المرء أن يعرف ما يشعر به في دخيلة نفسه. لم يذق المسكين طعم الحب.

وكان في الصيف، عندما يفرغ من تناول حسائه، يذهب، عادة، تجاه الباب ويجلس قبالته. أما في الشتاء، فكان ينزوي بجوار المدخنة ويظل قابعا لا يحرك ساكنا حتى يحل المساء. لكنه، بين لحظة وأخرى، كان يرخي جفونه الرامشة بعصبية على بياض عينيه الخاويتين. أكان يدرك معنى لحياته؟ أكان يجول بباله خاطر عن كآبة حياته تلك؟! لم يسأله أحد البتة هذا السؤال! فقد استمرت حياته لسنوات طويلة على هذا المنوال. واخيرا، ضاق أهله ذرعا بعجزه التام وببلادته وعدم مبالاته بأي شيء. وأصبح المسكين أضحوكة الجميع. وصار أيضا هزأة لهؤلاء الفلاحين الاجلاف. كانوا يتندرون عليه ويداعبونه بلا شفقة! كانوا بذلك يعوضون أنفسهم عما يقدمون له من طعام، غير مكترثين ببؤسه ومحنته. تعودوا ان يتبادلوا التعليقات الساخرة خلال فترة تناولهم الغداء في مطبخ المزرعة. كانوا يتزاحمون ويلتفون حوله، ويتمادون في ممازحته. فما أن يبدأ في تناول حسائه، حتى يضعون أمامه على المائدة قطة أو كلبا يدرك بغريزته عاهة الرجل، فيتمسح بالطبق ويلغ فيه ويلتهم ما به ثم يلعقه بهدوء. عندئذ ينفجر بالضحك جمهور الفلاحين المستندين الى الحائط. ويضربه بعضهم بالكوع حينا، ويدق بعضهم الآخر الأرض بالقدم حينا آخر، بينما يستمر الرجل البائس — دون ان ينبس بكلمة واحدة، في تناول طعامه بيمينه، رافعا يسراه حارسا طبقه، مدافعا عنه. وأحيانا يدسون له في طعامه قطعا من «الفلين» أو نشارة من الخشب أو بعض الأشياء المؤذية، وهم يعلمون انه لن يرى ذلك. وسرعان ما يداخلهم الملل والتعب من لعبتهم الخسيسة تلك. أما زوج شقيقته الذي ضجر من اطعامه فقد اعتاد ان يضربه ويلطمه على أذنه غارقا في الضحك، والمسكين يحاول عاجزا ان يتحاشى الضرب أو يرد عنه اللطمات. وبهذا تبدأ لعبة أخرى قاسية! أما الغلمان الذين يحرثون في الحقول ومن يصغرهم من الأطفال والبنات فكانوا يؤذونه ، فترمش عيناه. لم يكن في مستطاعه إلا أن يمد ذراعيه ليمنع الأذى عنه. أخيرا، يتركونه يخرج ليتسول! كان يذهب احيانا الى السوق، ويستقر هناك على قارعة الطريق. وهو عندما يسمع وقع أقدام أو ضوضاء عجلات العربات، يخلع عنه قبعته ويغمغم متلجلجا:

— «امنحوا العبد الفقير قرشا!».

لكن الكرم لم يكن شيمة الفلاحين هناك، اذ كانت تمضي أسابيع يتسول خلالها فلا يعود الى بيته في نهاية المطاف بفلس واحد! وهذا ما أهاج في نفسه الغيظ والضغينة، بل هذا ايضا ما يفسر سبب موته كمدا.

وذات شتاء قارس البرد، وقد اكتست الأرض بالثلوج، اصطحبه زوج شقيقته واقتاده مسافة طويلة عبر احد الشوارع الرئيسية بالقرية، واستقر به هناك بعيدا حيث تركه طوال النهار ليستجدي ويتسول.

وعندما حل المساء، عاد زوج شقيقته وحده يقول للناس ان المسكين قد تاه منه وانه لم يستطع ان يعثر عليه، ثم أضاف: أتوقع أن احدا لا بد قد آواه في بيته لأنه لا شك قد أصيب بالبرد! أقسم انه لم يضل طريقه، وسوف يعود غدا في ميعاد غدائه!».

ومضى اليوم التالي ولم يرجع المسكين! لقد امتدت وقفته هناك في الصقيع القارس لمدة ساعات طوال. ولما أحس أنه أوشك أن يموت متجمدا، ترك مكانه ومشى. لكنه لم يعرف كيف يسير في ذلك الطريق المكسو بالثلوج. وظل يتخبط في خطاه ويتعثر في الحفرات، لا يعرف أين يذهب. ظل يتحامل على نفسه مثابرا يبحث عن مأوى، دون أن ينبس بكلمة. وسرعان ما تخدر جسمه من البرد فسقط متهالكا. قبع وسط خلاء مثلج ولم يقم مرة أخرى! وظلت الثلوج تتساقط وتتراكم فوق جثمانه حتى غطته فدفنته. وتيبست اطرافه وتجمدت. واختفى الأعمى المسكين تحت ركام الجليد. ولم يعرف قبره انسان! وتظاهر أهله بالبحث عنه، هذا البحث الذي توقف قبل مضي اسبوع! وتصنعوا الحزن عليه فارتدوا ثياب الحداد!

لقد كان شتاء قارسا حقا! وكان ما يزال على ذوبان الثلوج أمد طويل! وفي يوم من أيام الآحاد وعلى الطريق المؤدي الى بلدة «ماس» لاحظ الفلاحون سربا من الغربان أخذ يحلق ويحوم فوق منطقة مستوية. كانت الغربان تهبط فوقها في انقضاض مرات عديدة كأنها سحابة سوداء. ومضى أسبوع، وما تزال الغربان هناك تهبط وترتفع وتحلق في الهواء ثم ما تلبث ان تعاود انقضاضها! كانت صفحة السماء سوداء بسبب كثافة اسراب الغربان التي تواردت من كل حدب وصوب كرقع سودا وراحت تنقض بدأب ونهم في هيئة مد وجزر! وشاع نعيبها المروع في أرجاء الخلاء الجليدي الباهر!

واتجه غلام صوبها مستطلعا، وهناك اكتشف جثة الأعمى. وجدها ممزقة إربا إربا وقد أتت الغربان على نصفها كما فقأت عينيه البيضاوين الشاخصتين والتقطتهما بمناقيرها الدامية النهمة.

الم تعد الشمس تهز مشاعري بالفرح، بسبب تلك الذكرى الأليمة! لم أعد استطيع الاستمتاع بدفء الشمس وبفرحة الحياة منذ ان عرفت تلك القصة. كانت تلك الذكرى الأليمة تعصر قلبي وتعكر عليَّ حياتي، ولا استطيع إلا أن أذكر بقلب كسير ذلك الأعمى البائس الفقير، ذلك الذي كانت حياته مأساة مروعة كما كان مماته راحة لكل أولئك الذين عرفوه□




هذا عنوان كتاب جمعه وحققه الدكتور عبدالحميد محمود المعيني صدر عن نادي القصيم الأدبي عام ١٤٠٢هـ. وهذا النوع من التأليف داخل في التآليف السبعة التي حصر الإمام ابن حزم التأليف الحقيقي فيها.

هذا النوع هو جَمْع المتفرق. إلا انه خصوص جمع يتعلق بفن دواوين الشعر واشعار القبائل. وقد كان من شأن الأسلاف جمع أشعار القبائل، ووصل الينا من ذلك شرح اشعار الهذليين للسكري. وكان الامام ابو عمرو الشيباني والسكري ممن توسع في هذا الباب. وجمع أشعار القبائل وشرحها من الضرورات في عصور التدوين والانسلاخ من الأمية. وقد روى ابن سلام باسناده الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصحّ منه»[1] وهذا صحيح، لأن منه البيان والشاهد للغة العرب وبلاغتها وتاريخها وانسابها وبلادها. ويكفي في حسن كتاب المعيني وأهميته انه الأول من نوعه.

أما ما ذكره المفهرسون من كتب في جمع أشعار القبائل تشمل بني تميم، أو من كتب مفردة ككتاب السكري في جمع أشعار بني تميم[2]: فكل هذه الكتب لا تبخس المعيني حقه في الريادة، لانها كتب مفقودة. ولو اكتفى بجمع المادة وضبط النص: لكان الاستدراك عليه لا يخل بريادته. بيد انه عُني بالشرح فكان في بعض شرحه ما لا يحقق مدلولا، وكان في بعض شرحه ما هو خطأ محض.

وهذا الأمر المتعلق بالشرح هو الذي حدا بي الى الاستدراك عليه استدراكا لا يتقصّى كل المؤاخذات ولا أكثرها، وإنما يرسم منهج التصحيح ويذكر المثال ليقوم

(١) «طبقات فحول الشعراء» ٢٤/١.

(٢) «فهرست ابن النديم» ص/١٥٩.

المؤلف بالاستدراك المستوعب من قبل نفسه اذا ما اراد اصدار الكتاب في طبعة ثانية.

وأقدم بين يدي ذلك بما يتعلق بجمع المادة بغض النظر عن شرحها فأرى أن مصادر المؤلف ومراجعه لا تتعدى ستة وتسعين مصدرا، وهي مصادر قليلة شحيحة لا تحقق له الاستقصاء الأغلبي لسببين:

أولهما: انه يريد جمع ما لم يطبع من الدواوين من شعر بني تميم، وهذا موضوع وسيع وان كان محصورا بالعصر الجاهلي، لأن بني تميم قبيلة كثيرة العدد.

وثانيهما: ان مصادر المؤلف ليست كلها رئيسة من أمثال كتب المختارات والمجاميع والموسوعات الأدبية.

وإنما أكثر مصادر مساعدة تجتزىء بعض المادة وتكررها ككتب اللغة وكتب الاستشهاد على ان مصادر المؤلف ذاتها تتضمن معلومات عن شعر تميم غير ما أورده.

وأضرب مثالا لذلك بشعر المخبّل السعدي تجد مصادر جمعه لدى المؤلف كالتالي:

١ ــ منتهى الطلب ٢ ــ الأغاني ٣ ــ معجم ما استعجم ٤ ــ معجم البلدان ٥ ــ مجموعة المعاني الكبير ٦ ــ حماسة البحتري ٧ ــ شرح القصائد السبع الطوال ٨ ــ خلق الانسان ٩ ــ شرح ما يقع فيه التصحيف ١٠ ــ شرح ديوان الحماسة ١١ ــ رسالة الغفران ١٢ ــ المخصص ١٣ ــ محاضرات الأدباء ١٤ ــ لسان العرب ١٥ ــ الاصابة ١٦ ــ تاج العروس ١٧ــخزانة الأدب ١٨ ــ كتاب الاختيارين ١٩ ــ طبقات فحول الشعراء ٢٠ ــ جمهرة اللغة ٢١ ــ نقد الشعر ٢٢ ــ الامالي للقالي ٢٣ ــ سمط اللآلىء ٢٤ ــ الاقتضاب ٢٥ ــ الشعر والشعراء ٢٦ ــ تاريخ الطبري ٢٧ ــ أيام العرب ٢٨ ــ البيان والتبيين ٢٩ ــ الاضداد للاصمعي ٣٠ ــ الكتاب ٣١ ــ صفة جزيرة العرب ٣٢ ــ كتاب

الصناعتين ٣٣ — شرح المفصل ٣٤ — النقائض ٣٥ — الأزمنة والأمكنة للمرزوقي.

فهذه المصادر خمسة وثلاثون مصدرا فقط عن أكثر أصحاب المجموعة شعرا، وهو المخبل السعدي. وهناك مصدران تصبح بهما المصادر تسعة وثلاثين مصدرا وهما «شرح المفضليات» للأنباري، و «شرح التبريزي». إلا أنهما لا يضيفان جديدا الى مادة شعر المخبل، ويغني عنهما المتن.

وليس في مصادر المؤلف ما هو مخطوط سوى منتهى الطلب على كثرة الأمهات التي لا تزال مخطوطة. وأكثر هذه المصادر القليلة مساعد وليس رئيسا. وكان الدكتور حاتم صالح الضامن قد جمع شعر المخبل السعدي ونشره في مجلة «المورد»، ثم نشره ضمن كتابه «شعراء مقلون» فبلغت مصادره ثمانية مصادر ومئة مصدر.

ومع هذا ففي مصادر المعيني ذاتها مواضع ندَّت عنه، فمن مصادره لسان العرب، ومع هذا فلو تابع احالات الدكتور ياسين الأيوبي في كتابه «معجم الشعراء في لسان العرب» ص/٣٧٨ — ٣٧٩ لوجد أماكن فاتته.

ولست أشارك المؤلف عمله في التأليف فأفلي مئات المصادر؛ لأنني غير متفرغ لهذا العمل، وحسبي أن أذكر له نموذجا من النقص في التقصي ليعلم ان وراءه مزيدا ليتلافى ذلك في الطبعة الثانية:

* فاته البيتان اللذان منهما:

**اتهجر ليلى للفـراق حبيبهـا**

وقد احالهما الدكتور الضامن الى عدة مصادر منها «المقاصد النحوية» للعيني[٣].

* فاته البيتان اللذان منهما:

**سيكفيك صرب القـوم لحـم معرض**

وقد احالهما الضامن الى اصلاح المنطق وشروح سقط الزند[٤].

وفات الضامن الخلاف في نسبة الأول الى السليك بن سلكة[٥].

* فاته هذا البيت:

**وقد انهب المعزى فبرت يمينه**
**وما ضرّ سعدا مالـه المنتهب**

وقد احاله الضامن لفصل المقال[٦].

* بعض القصائد التي أوردها تنقص عما اورده الضامن، كالقصيدة الرائية المفتوحة، لم يورد فيها المعيني هذا البيت:

**فأنزلهم دار الضيـاع فاصبحـوا**
**على مقعد من موطن العزِّ اغبرا**

(٣) «شعراء مقلون»، ص/٢٩٠.
(٤) «شعراء مقلون»، ص/٢٩٠ — ٢٩١.
(٥) «لسان العرب»، ٥٣/٧.
(٦) «شعراء مقلون»، ص/٢٩١.

وعزاه الضامن الى أساس البلاغة واللسان[٧].

* فاته البيتان اللذان منهما:

**كسوناها من الريط اليماني**

وعزاهما الضامن للآلىء للبكري[٨]، ونقل عن البكري ما يدل على أن شعر المخبل جمع من قديم، فان البكري قال عن هذين البيتين: «وقد رأيت في بعض حواشي الأمهات انهما للمخبل، ولم يقعا في ديوان شعره».

* فاته هذا البيت:

**محبَّسة في دارة الخرج لـم تـذق**
**بلالا ولـم يسمخ لهـا بنجيل**

وأحاله الضامن الى معجم البلدان[٩].

* فاتته الأبيات الثلاثة التي منها:

**وساقطة كور الخمار حيية**

وأحالهن الضامن الى ديوان المعاني[١٠].

* فاته البيتان في هجاء الحطيئة اللذان منهما:

**اذا ذكروا الحطيئة لم يعدّوا**

احالهما الضامن الى اخبار ابي تمام[١١].

* فاته البيتان اللذان منهما:

**وقالوا اخانا لا تضعضع لظالم**

وعزاهما الضامن الى حماسة البحتري[١٢].

* فاته هذا البيت:

**خوامس تنشق العصا عن رؤوسها**
**كما صدَّع الصخر الثقال المعدّن**

وأحاله الضامن الى لسان العرب[١٣].

* فاته البيتان اللذان منهما:

**ولما رأت قطمان من عن شمالها**

وعزاهما الضامن لعدة مصادر[١٤].

* فاتته قصيدة، ومقطعات، وأبيات مما نسب للمخبل وغيره[١٥].

* فات المعيني والضامن معا ما ورد في تهذيب اللغة من شعر للمخبل[١٦].

* وفاتهما معا بيتان اوردهما الهجري على قافية الباء بوصل الهاء[١٧].

(٧) «شعراء مقلون»، ص/٢٩٤ وقارن بشعر بني تميم ص/١٢٨.
(٨) «المصدر السابق» ص/٣٠٣.
(٩) «المصدر السابق» ص/٣٠٤.
(١٠) «المصدر السابق» ص/٣١١.
(١١) «المصدر السابق» ص/٣١٧، وقد عارضه الحطيئة في قصيدة له عن «سدوس».
(١٢) «المصدر السبق» ص/٣١٧.
(١٣) «المصدر السابق» ص/٣١٩.
(١٤) «المصدر السابق» ص/٣٢١.
(١٥) «المصدر السابق» ص/٣٢٣ — ٣٢٥.
(١٦) انظر «فهارس تهذيب اللغة»، ص/٧٦١.
(١٧) «التعليقات والنوادر»، ص/٢٧٥/٢ — ٢٧٦.

**وبهذه** المناسبة أذكر محاولة لشيخنا السيد احمد صقر ــ متعه الله بالصحة والعافية ــ يوم كان شابا فقد جمع شيئا من شعر علقمة وسماه «شرح ديوان علقمة الفحل»، وقدم له الدكاترة زكي مبارك فبارك خطوة أزهري يجمع شعرا؟! وقال: «أما القصائد التي تعد ابياتها عدا فليست بديوان، وليست خليقة بأن يهتم بها ناشر او شارح وان تكلّف الغيرة على الأدب والبيان».

قال أبو عبدالرحمن: لو اخذنا بمقياس المتعة الفنية لحكمنا على كثير من شعر شعراء بني تميم الذي جمعه المعيني بنفس الحكم الذي اطلقه الدكاترة على مجموعة السيد، لأن بقاء بيت أو بيتين من قصيدة لا يحقق متعة فنية وإنما نحكم بمقياس الضرورة التاريخية واللغوية وفق ما صدرت به من كلام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وفي مجموعة المخبل لدى المعيني ما ليس في مجموعة الضامن وهو الأبيات الثلاثة التي مطلعها:

**ومشيت باليد قبل رجلي خطوها**[١٨]

والواقع ان هذا الشعر لربيعة بن مقروم الضبي، وهذا ما نص عليه مصدر المعيني نفسه[١٩] وانما غبي على المعيني وهم البحتري حول المخبل السعدي وربيعة بن مقروم.

ومن ناحية المنهج فالأمثل التيسير على القارىء بأن يكون التخريج تحت عنوان القصيدة بالنسبة للمصدر الذي روى كل القصيدة، وان يكون تخريج كل بيت تحته بالنسبة للمصادر التي خرّجت البيت والبيتين. ومنهج المؤلف بسبيل وعر خلاف ذلك. وألاحظ في منهج المؤلف أنه اورد شعر السلكة ام السليك وليست تميمة.

فان كان، أخذ بمبدأ ان مولى القوم منهم: فمعنى ذلك انه تقصى شعر موالي تميم في الجاهلية فلم يجد غير السلكة. وألاحظ أنه أهمل نهشل بن حري،وهو شاعر كثير الشعر ــ بالنسبة لأصحاب المجموعة ــ وليس له ديوان مطبوع. ومن صنيع المؤلف ايراد شعر المخضرمين، ونهشل شاعر مخضرم.

**والعتب** الأشد في هذه الدراسة العاجلة إنما هو على الخلل في شرح تلك المقطعات، ويكفيني ذكر نماذج يسيرة، وتلك النماذج تكفي في رسم المنهج عند ارادة المؤلف طبع الكتاب. ومما ألاحظه في منهج الشرح انه احيانا يفسر بيتا واضحا، ويهمل بيتا كثير الغريب فلعله في المستقبل يشرح جميع الشعر او يقتصر على شرح الغريب. وهو في كثير من الأحيان لا يفرق بين مدلول المفردة اللغوي، ومراد الشاعر (المتكلم). ومعلوم ان مراد المتكلم أخص لأنه واحد من المعاني اللغوية الكثيرة.

(١٨) «شعر بني تميم» ص/١٣٤.
(١٩) «الحماسة» للبحتري، ص/٢٠٤.

خذ مثال ذلك شرحه لقول المخبل:

**تأبى الى بصص تسـ**
**ـحّ المحض باللبن الفضنفر**

شرح البصص بقوله:

«البصص: العدد، والبصاص اللبن، ومن الكلأ ما يبقى على عوده، وأبصت الإبل اسرعت»[٢٠]. وقال ابو عبدالرحمن: إنما نريد معنى البصص في هذا البيت فقط، ونريد معنى «تأبى» ها هنا ونريد المعنى الاجمالي للبيت.

وقال المخبل:

**وبقية النؤي الذي رفعت**
**اعضاده فثوى له جذم**

فسّر النؤي بالحاجز حول البيت، والجذم بالبقية[٢١].

قال ابو عبدالرحمن: هذا تفسير عامي ليس من شرح أهل التخصص باللغة،وهو تفسير للفظ بصفة المسمى لا بالمعنى نفسه.

والنؤي أخص من عموم الحاجز، وهو حفرة دون الخباء تمنع السيل، والجذم ها هنا الأصل، وهو عمق الحفرة. والجذم في أصل اللغة القطع. أما البقية فنتيجة معنى وليست هي المعنى ذاته.

وقال المخبل:

**وأرى لها دارا بأغدرة السيدان لم يدرس لها رَسْمُ**
**الا رمادا هامدا دفعت**
**عنه الرياح خوالد سُحْمُ**

قال: اغدرة السيدان: مكان في ديار بني تميم، وعرّف الخوالد والسحم لغة[٢٢].

قال ابو عبدالرحمن: المكان «السيدان» فقط، أما الأغدرة فتكون في كل مكان. كما أن المؤلف لم يبين مراد الشاعر بالخوالد السحم، وإنما عرف كل مفردة لغة، وهذا لا يكفي لأن المطلوب مراد الشاعر. والمراد ايضا التعريف بالسيدان تعريفا يقرب من رسمه على الخريطة في الجزيرة.

وقال الأهتم بن سمي:

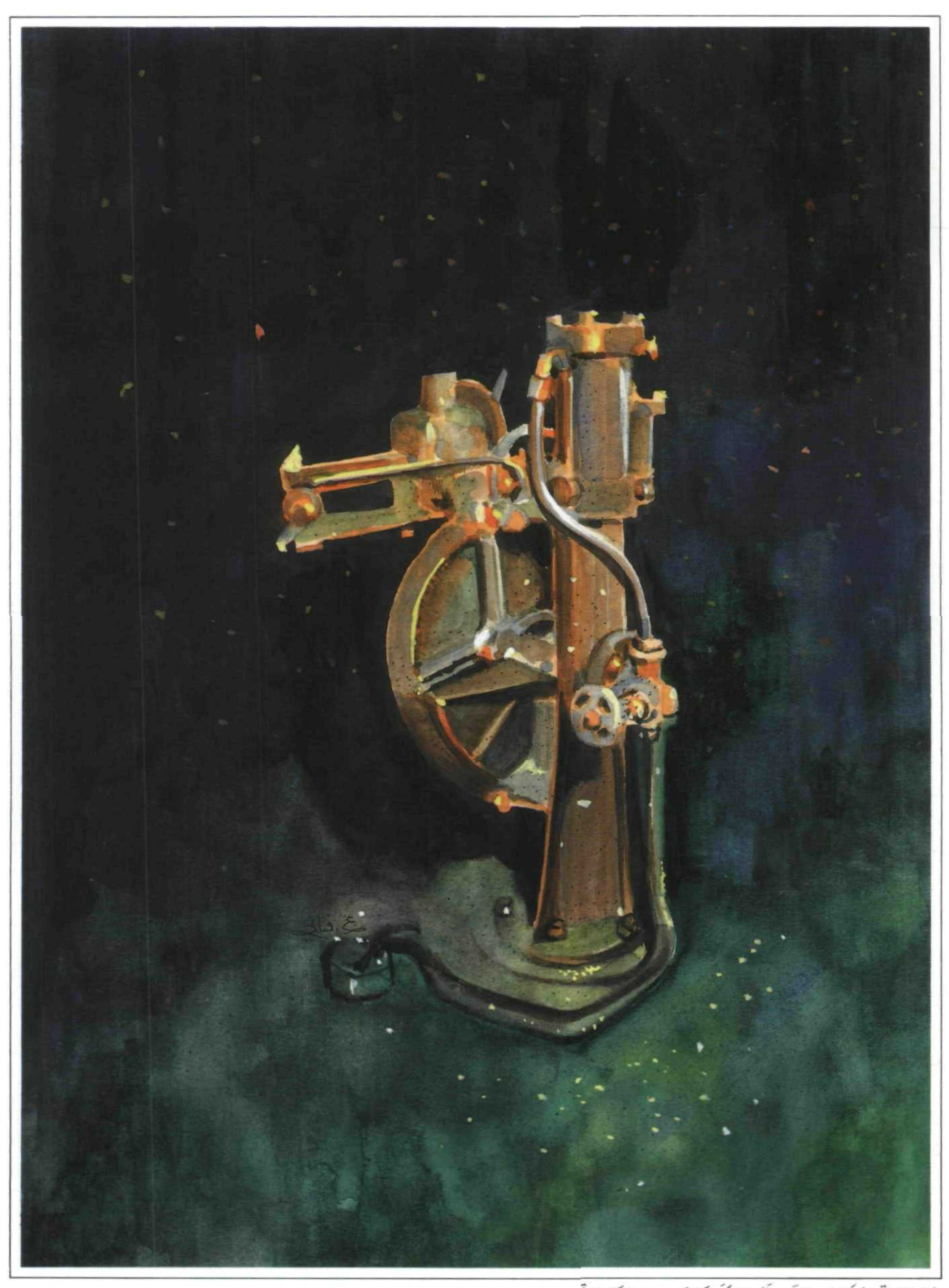
**حشاه سنان من شراعة ازرق**

فسّر الأزرق بشديد الصفاء، وقال: عدو ازرق: شديد العداوة[٢٣].

قال ابو عبدالرحمن: الأزرق لون معروف، والعدو الأزرق مجاز أدبي لا علاقة له بقول الأهتم.

واختم هذه الجولة بتكرار ما قلته من ان ملاحظاتي ليست استقصاء، وانما هي رسم منهج لعمل المؤلف الفاضل يقبله اذا ما اراد اعادة طبع هذا السفر النفيس □

(٢٠) «شعر بني تميم» ص/١٣٦.
(٢١) «المصدر السابق» ص/١١٠.
(٢٢) «المصدر السابق» ص/١١٠.
(٢٣) «شعر بني تميم» ص/٨٨.



القاعدة التي تحمل عجلة السفينة تقف ثابتة في مكانها بعد مضي ٧٣ سنة على غرق تاتنيك في قعر المحيط .. راجع مقال: « التاتنيك .. السفينة التي لا تغرق »



راجع مقال: « ما أغرب هالة الشمس »